الفصل الثالث

الشاعر فى إطار فنه الشعرى

(أ) الإبداع الشعرى ومراحله .

١ – **المرحلة الأولى**: من سنة ١٩١٠ – ١٩١٦

تبدأ هذه المرحلة وهو فى الثامنة من عمره ، حينئذ تمازج الزمان والمكان فى نفس شاعرنا فأكسبانه – فوق ما فطر عليه – صفات تقترب به من عالم المجهول ، ليحاول بشعوره أن يتصل بهذا المجهول ويصبح لديه الجمال دنياه والحق والخير شيئا واحداً ولا يتصور – حينئذ – لإنسان إلا فى إطاره الحقيقى ومكانه من كون الله الفسيح ، فيسوى بينه وبين الزهرة ، والشجرة والبحر ، لأنها فى إطار الطبيعة أجزاء للجمال الطبيعى وتمتزج فى قلبه ، ووجدانه أحاسيس دينية ، وجمالية ، وإنسانية فيقوم دينه فى قلبه على مقومات : « الحب » و « الحق ، والحرية » والرحمة و «السلام » ويلتفت حوله فيرى كونه جميلا محاطا بالثقة ، والإيمان ، والحب وعالمه لا تحاصره ظلمات الشك والريبة ، والكراهية بل تغمره شلالات الضوء الفضى . وتحتضنه أمواج الحب الإنسانى .

وهكذا تلونت صورة الحياة فى ذهن شاعرنا ، وهو ما زال يخطو خطوات الطفولة الأولى ، ويدرج إلى « الحداثة » و « الصبا » ويكون الحب وحده اللون الغالب على صورة الحياة عنده ، وما الحب – كما وصفه مرة لأستاده ، وهو ما زال بالمرحلة الابتدائية – إلا شعور بالسعادة لأننا نعيش بين أحضان هذه الحياة التى يمنحنا طيرها صوت الألفة ، وتنساب فى أعماقنا نسمات راعشة فتبهجنا ، وتقوى رغبتنا فى الحياة ، والتعاطف مع الناس .

فالحب عنده يبدأ من التآلف الذى ينشأ بين الإنسان وبين الطبيعة والألفة التى تمزج بينهما ، ثم الميل الفطرى للطبيعة ومصادر الجمال فيها

واستعداد خاص من بعض الأجسام ، والقلوب أودعها الله بعضا من الصفات الروحية ، وجبلها على الخير — والحساسية المفرطة ضد الشر ومظاهره ، والإقبال العفوى على كل مظاهر الحياة والحلم الدائم بين أحضان عوالم أثيرية تلتقى فى أجوائها نقـاء الأشياء وصفاؤها ، ومعطيات الأرواح ومباهجها .

ومن هنا كان الإحساس لديه قويا ، ومفعما بالفقدان ، والرحيل وانطواء النفس على سر غامض لا يبين واحتواء الجسم روحا كنهها غير محدود ، وعذوبتها لا بداية لها . واستسلام القلب لما يمليه الغيب والارتماء الطفولى بين أحضان من نألفه ومن نتألفه بحثا عن باقى أحبائنا ، واستكناه الا لعناصر وجودنا وتحقيقا للذات الأصيلة التى تطل من حنايانا .

وأخيراً ينبض العقل بأسئلة تدور حول البداية والنهاية وصولا إلى موطن الأشياء وتأكيداً على وحدة كونية تخضع لله بالعبودية وهى فى حالة ترقب وانتظار للحظة صدق تتعارف فيها الأشياء ، وتتقارب الأبعاد ، وتتوحد الأضداد فتصبح الرؤية لكل من حولنا حقيقية والصور المثالية التى تستوطن آفاقنا النفسية ، والوجدانية قادرة على التعامل مع الواقع فى يسر وسلامة ، وتناغم .

وهكذا تشكلت صورة عن الحياة ، والناس ، وتوالت نوعيتها ومثاليتها وأخذ يبشر بها على أرض الواقع لتتحول إلى طاقة دافعة للسلوك الإنسانى نحو الأفضل بدلا من أن تظل حبيسة ، وتجريدية لأنه يرى — أيضاً — أن هنالك لحظات تتوافق هذه الصور مع الواقع لتتشكل منهما لحظة إنسانية واجتماعية مفعمة بالصدق ، والنبل وكان الشعر وسيلته الوحيدة لتوحيد عالم المثل وعالم الواقع فى عالم واحد ، هو عالم الشاعر ، وكان حبه للأشياء رمزاً

للتوحد وعناقه مع الطبيعة دليلا على نزوعه الإنسانى نحو الألفة ، والمحبة وأيضاً حبه للمرأة كان إيمانا ، ورمزا ، إيمانا بأنها ظل الرجل وتوأم حياته ، والرفيقة الوحيدة على وجه الأرض التى تعطيه الإحساس بعالم صوره المجردة ، ورمزاً للعودة من الرحيل ، والحضور ، والوجود بعد الفقدان ، والينبوع الذى يستقى منه أحزانه ، وآلامه ، ونبل تعاساته ، وشفافية شقاواته ، وحرمانه .

من هنا بدأت رحلة الشاعر ، ومراحل إبداعه الشعرى حيث أخذت تطل هذه الصورة فى شكل شعرى أقرب إلى النثر منه بالشعر ، وقد أحس بفيض ، وبرغبته فى أن يبوح بشىء ، وذلك عندما كان جالسا فى شرفة من شرف القصر ، وبصره يمتد ، وينتقل عبر قدرة الله المبثوثة فى الأرض ذات العطية . والطبيعة المميزة بلونها الأخضر الإلهى فأقبل على والده ذات مساء يحمل بين يديه بعضاً من قصائده التى يقول منها :

أنا ها هنا حيث تستيقظ الروح حيث الجمال ... والخيال
هنا حيث يدفن الضجيج ، وحيث يبعث السكون والهدوء . . .
فصبرا . . . صبرا ، إنى أريد أن أبقى هنا بروحى وفكرى . . .
مهلا . . . مهلا . . . أريد أن أحلم هنا ، فقد بكيت هناك . . .
إنك تأمرينى ، فطوعا أيتها الآمرة لعلك تعلمين فتقلعين . . .
طوعا يا نفسى لأفكارى ، وارضخى يا يقظتى لأحلامى . . .

فإن لى فى الربيع عنوانا أجله
وفى الجمال محرابا أقدسه

وإياك أن تكفرى فى حضرة الربيع . . . أنست معى من العباد الصالحين وعينى وحدى أهيم فى بيدائى ، وكفانى الخريف فقد أقفر قلبى . . .

دعينى أســكب دمعى لأروى أزهــار قلبى
دعينى أغنى بزهر حياتى فإنى أريدهــا ربيعــا
دعينى أسعد فإنى فى شــــوق إلى سعــــادتى
ودعيهــا تحــدثنى فأنا فى شوق إلى حديثها
دعى الزهور تناجينى ففى أصواتها ذكرى تعبث بقلبى . . . . .
أنــا أمــد عــينى فأرى الفراشة ترنح سكرى بجمالك
إنها تراقصك يا زهرتى أحيانا متجردة وأحيانا فى أثواب ذات ألوان
إنها ترقص رقصة الهوى حــــتى خــــارت قــواهــــا
فتهبط عليك صرعى لتنهل من جمالك
فكل ما فيك بديع يا زهرتى حتى أشواكك فهى جميــلة عندى
وكل من عرفك . . . ويذهب عنك يعود إليك . . . وقد عرفتك لقد وجدت فيك تناسقا . . . فنيا .
فها هى يد السماء تبدع وها هى القدرة العلوية تفتن ففنها جميل . . . وفنها لا يموت وفنها باق ما بقيت الحياة(١)

يسمع الأب هذ اللون من الشعر فيغتبط ، ويفرح ، لكنه يبدأ ينكر على ابنه الاستمرار فى (نظم شعر شبيه بالشعر الأجنبى) ويطلب إليه أن يقرأ كثيراً فى عيون الشعر ويضع بين يديه مكتبته الزاخرة ، والعامرة بكل كتب التراث الشعرى ، وهنا تبدأ تلمذته على شيخ أزهرى ، ومدرس فى المرحلة الأولى ، وشاعر مجود هو أستاذه وصديقه : « محمود البيلى البشبيشى » (١٨٧٢ — ١٩٦١) .

---

(١) وجدت هذه القصيدة النثرية ضمن بعض أوراقه الخاصة ومرفق بها ما يؤكد فرح أبيه ، ورأيه فى أن يتوج هذا ويصقله بالقراءة فى عيون الشعر العربى .

٢ – المرحلة الثانية : (من سنة ١٩١٦ – ١٩٢٣) :

ومع القراءة وسماع الشعر أخذ يتردد على «ندوات» الشعراء التقليديين فى بلده مثل ندوة الشيخ « عبد الرازق أحمد » ، والشيخ « أحمد أبو السعد » و « محمود السعيد » بمضيفه أبى السعد « و » ندوة الشيخ البهوتى » وكلها ندوات يتردد فيها شعر تقليدى يحمل وفاء وولاء للشعر المملوكى والعثمانى فى احتفاله المبالغ « بالصياغة » و « التكلف » وأخذت أذنه تستقبل كلمات شعر المراثى من « المآتم » التى كانت تبقى لسبعة أيام بلياليها ويتخللها قراءة القرآن ، وإلقاء قصائد الرثاء ، «شعر الأربعين » ثم ختام السنة ، وكلها مناسبات يتبارى فيها شعراء الأقاليم بشعر تقليدى فاقد للروح الشعرى الحزين ، وأيضاً تلتقط أذنه « شعر المناسبات » ، و « المدائح النبوية » ، «والتهانى بالزواج ، والحج ، والختان » ... إلخ .

لكن أذنه تنفر من هذه الألوان ، وتحاول البحث عن نغم حزين كلمات أكثر دفئا ، ولمعانا ، وإشراقا ، وقد يجد هذه الألوان فى شعر « عمر بن أبى ربيعة » و « العباس بن الأحنف » ، « مسلم بن الوليد » و « المتنبى » و « الشريف الرضى » ويتحول الشعر عنده خلال هذه المرحلة إلى وسيلة للتعاطف مع الطبيعة ومشاركة طيورها ، وكائناتها أفراحها ، ولحظات سعادتها متأملا صفاءها ونقاءها ، معبراً بشعره عن أحاسيسه ، ومشاعره متخذاً من تلك المشاعر ، والأحاسيس منفذا إلى الطبيعة ، ومدخلا إلى عالمها وله فى ذلك قصائد حول الأطيار ، وعرسها الربيعى وهو يسميها « عرس الطبيعة » يقول فى رسالة إلى أستاذه ، وصديقه الشيخ « محمود البشبيشى » .

« ... هذا وقد نظرت فإذا فوق الشجرة حمامتان رأيتهما قد دخلا العش ، وخرجا فنظرت إليهما فرأيت العبرات تتساقط منهما ، وأخذا فى الغناء ، والشجو الحزين ، وكأنى بالذكر يقول :

زمن مضى وأتى الفراق بسرعة فضممتها نحوى وقلبى يخفق
وأخذتها نحو العشيش بلهفة ولثمت ثغراً باسما إيترقرق

إلى أن يقول :

ولها أرى شمس المسرة تشرق لما تجمع شملنا المتفرق

أو قوله وقد تخيل بلبلا حزينا يصدح بنغم مصاب بدخيل من الأسى والحزن فوق زهرة جميلة ، فأهاج مكنون لواعجها ، وآلامها فالتفتت إليه قائله :

يا صادحا أزعجتنى ببكائك الجارى السخين
يا ناشرا فى الليل هما ياله هم دفين

فيرد عليه البلبل ، وهكذا تستمر قصيدته العاطفية حواراً بين : « زهرة وبلبل » وتظل حياته فى بلدته موزعة — خلال تلك المرحلة — بين القصر المتكىء على زند نهر « بلقاس » الجارى أسفل الكوبرى الخشبى الذى يفصل بين بحرى البلد وجنوبها والذى يمثل ملتقى مواكب الفلاحين الغادين والرائحين ومعهم قطعان ماشيتهم ، وبين مشاهد الطبيعة المنتشرة عبر الأراضى الزراعية الممتدة بفرشها السندسى الأخضر .

وتكون رحلته مع الشعر خلال تلك الفترة — أيضاً — تحرراً من سيطرة المواريث الشعرية السائدة فى بلده ، وإقليمه ، وخلوا من المضامين التقليدية ، ونزوعا إلى العواطف الإنسانية ، والخيال الجميل ، والصور البسيطة ، ويسأله بعض الأصدقاء من الشعراء التقليديين عن هذا الشعر ، ولونه ، ومحتواه فلا يستطيع الإجابة إلا بالاسترسال فى صياغاته الشعرية التى أحدثت دويا فى إقليمه المحدود لأنه يقولها وهو ابن الثامنة عشر عاما ، ويفرغ فيها أحاسيس عوالم الطفولة ، والشباب ، ويتجه فيها إلى الطبيعة وكائناتها يرثيها إن ألم بها الموت ، ويفرح لها إن نزل عليها صيب ، أو عانق طيرها الأجواء فى مرح وسرور أو عاد إليها الربيع فاستقبله الكون فرحا ، طروبا

لدرجة أن أحد أصدقائه أطلق عليه : « المأذون الشرعى للطبيعة » يقيم لها الأفراح والزيجات ، ويعقد قران الأطيار ، والأشجار وذلك بدلا من أن يشارك مجتمعه تقاليده الشعرية فى الرثاء والمديح ، والفخر والتهانى ، والإخوانيات ، والمناسبات ، لهذا كان شعره خروجاً على ما ألف الوجدان الإقليمى وينبىء عن قلق ، وطموح وشوق ، وتوق ، وينتابه إحساس نبيل بما بداخله من صراع . وبحيوية ما يصبو إلى تحقيقه ، ولايجد شيئا يعبر به عن هذا كله سوى الشعر ، وهذا الذى يبحث عنه ليس الذى يسمعه من شعرائنا الإقليميين ، فشعرهم فى خدمة المناسبة ، ويترضى القلة الارستقراطية « صاحبة النفوذ ، أو الأراضى أو رجال الأمن والإدارة » فهو يريد شعراً بعيداً ، فى مضمونه وكلماته عن هذه الألوان الشعرية التى ألفها الناس من شعراء الأقاليم .

فيعود إلى الماضى ، ويستعيد زمننا الشعرى الأول ليحاكى شعراء العربية فى أزهى عصورها ، ويتلمس الطريق إلى تعبيراتهم الشعرية الملونة بأحاسيس القلب الدافىء فيعايشها وينفعل بها حتى يصبح قادراً على التعبير الشعرى عن ذاته ومحتواها الفكرى والإنسانى والجمالى .

إنه يعتز بالتراث على كل المستويات الفنية والتاريخية والعقيدية ويهيم به حتى آخر لحظات حياته ، ثم إن تمسكه بالفن الشعرى لا على أنه مجرد إبداع لغوى ، وإنما على أنه قيم جمالية ونفسية وإن محاولاته الإبداعية فى إطار الاحتفال بالتراث تتسم دائما بالرزانة والمحافظة ، والتمسك بالقيم والتقاليد فنيا واجتماعيا وبسبب عودته إلى التراث ومتحه من ينابيعه أخذت شاعريته بفضل قراءاته فى عالم التراث الشعرى والفكرى والنقدى تتفتح وتسود شعره صياغات جديدة لأفكار شعرية قديمة ، ويكثر من المعارضات لشعراء الغزل العربى فى أسمى صورهم ، وأجمل أشعارهم ومن ذلك قصيدته التى أرسلها إلى صديق له يتعلم فى « لندن » وعمره إذ ذاك

ستة عشر عاما يبثها الشوق ، والحنين ويتأثر فيها بالمتنبي ، مما يؤكد ثقافتا العربية ، وتأثره الشديد فى هذه المرحلة بالتراث ، واستعادته يقول منها :

لك يامساكن فى القلوب مساكن ... قفرت أنت وهن لما تقفر

أضحى الفؤاد بذكر أهلك هائماً ... وهم به فالقلب أعمى يبصر

خرق اللهيب به رموش عيونه ... فتراه أعشى لا يرى أو ينظر

لكن إذا ذكر الحبيب فدائما ... عيناه من خير العيون وأكثر

ويلاحظ على الشاعر أن النثر الفنى قد زاحم الشعر فى هذه المرحله حيث أخذ يترجم عن الفرنسية قصصاً ،ومقالات تتسم بالطابع «الرومانسى» ويؤلف قصصا حول الريف ، وطهارته ونقائه ، وعفة بناته ، محاولاً التعرض لمشكلاته الاجتماعية ، وبالذات تلك التى تدور حول الفتيات ، وحقهن فى الحب ، والزواج القائم على الحب بل إنه دائما يختم قصصه بانتصار الحب ، وجعل نهايته سعيدة بالزواج ، وقصصه : « الموءودة » ، « عصافير وغربان » « غادة الريف » تؤكد هذا ، وتمتاز — أيضاً — باسلوب شاعرى هو إلى الشعر أقرب حيث يتأنق فى اختيار تعبيراته ولغته وهو متأثر بالدكتور « محمد حسين هيكل » فى قصته « زينب » التى قرأها عشرات المرات ، وصادفت فى نفسه ، وقلبه هوى يقول فى إحدى رسائله : « هزتنى جداً « زينب » وهى تذبل ويصوح شبابها ، ويفلت من بين يديها الحب ، والحياة .

فلماذا يبخل عليهما كاتب القصة بأن يضمهما عش الزوجية وترفل زينب فى ثوب الصحة . أما أنا فلن أسلم أبطال قصصى إلى نهايات حزينة بل سأجعلهم ينعمون بالحب ، والحياة ، ورفقة الأيام السعيدة .

٣ – **المرحلة الثالثة** : — من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٧ وهو عام الرحيل فى هذه المرحلة تتفجر فى قلبه ينابيع الحب ، وآبار الشعر ، ويلتقى مع الشعراء فى القاهرة ، ويقرأ للنقاد ، والمفكرين ، وينصهر فى بوتقة الاتجاه « الديوانى الجديد » وتعجبه آراء العقاد والمازنى النقدية ويشارك عبد الرحمن شكرى أحزانه ، وتأملاته الفلسفية ، وينبهر لآراء « خليل مطران الشعرية ويلتقى مع الحب فى صورته المثالية حيث تولد بعد مراحل زمنية تكونت خلالها وقد طعمت أحلى المؤثرات ، وأجمل الخصال ، وتبدأ رحلته مع الكون والحياة والناس ، والشعر بحثا عن صورته المثالية على وجه الأرض ، أنه أمتزاج وذوبان كامل بين الصور ، والوقع ، بين العاطفة والرغبة ويصبح عنده الحب نوعا من الصوفية والعبادة ، وتجميعا عاطفيا يؤكد للشاعر معنى الانتماء ، وتتسع آفاق ثقافته وذلك بقراءاته الجادة لتراثنا الشعرى فى أزهى عصوره مع التركيز بالذات فى استيعاب عوالم شعرائنا « عمر بن أبى ربيعة » و « العباس بن الأحنف « وكثير عزة » مع تعمق فى دارسة أعلام الشعر الفرنسى وأعلام الشعر الرومانسى الإنجليزى : « بيرون » و « شللى « وكيتس » منكرا على شعرائنا الإقليميين واقعهم الفنى ويصور لنا هذه الفترة قائلا : « لم أجد فى شعر هؤلاء ما يشبعنى ويستجيب لما أشعر به فى داخلى ، أنه شعر يقال فى مناسبات حزينة أو سعيدة ، ولكننى لا أستجيب لحزنه ، ولا أشعر بسعادته كما أن أوزانه ، وعروضه وصوره ، تنفر منها أذنى ، ولا أجد فيها ما أريده من شعر العاطفة ، والشخصية الصادقة فى نقلها ، ووصفها ووجدانياتها إننى حزين لما وصل إليه الشعر فى الإقليم ، وعند بعض شعراء العاصمة من تمجيد ، وثناء لمن يستحق ، ومن لا يستحق وتصبح وظيفته إسترضاء ذوى الشأن ، وأصحاب الضياع بدلا من أن يكون أغنيات تجمل حياتنا ، وتصور أعماقنا ، وأحاسيسنا وتكشف عن الحزن الدفين بين جوانحنا ، وتبعث فينا الأمل ، ومعانقة الحياة .

أن هؤلاء الشعراء قد جاوزهم الحق ، والصواب ، وجهلوا رسالة

الشعر ، والشعراء ، ولو كانوا شعراء حقا لأدركوا أن الشاعر يحمل بين جنبيه رسالة من أسمى الرسالات . وهى تعريف الناس بمواطن الجمال ، والبحث فى أعماقنا عن المشاعر التى تنجذب إليها المخلوقات والانتقال بلغة الناس ، لتصبح لغتهم فى حياتهم العمة ، والخاصة لغة شاعرة ، وبهذا نساعد أفراد المجتمع على تهذيب لغته ، وترقيق أحاسيسه ، وتوسيع آفاق الجمال أمامه ، ونحقق — أيضاً — التقرب والتحاب الأجتماعيين . ثم يتساءل قائلا : « ترى ماذا يكون عليه واقعنا لو خلا شعرنا العربى من أمثال « أمرؤ القيس » و « المرقش » و « عنترة » و « عمر بن أبى ربيعة » و « العباس بن الأحنف » و « أبو العلاء » و « المتنبى » فهم بحق قد بعثوا فى نفوسنا العزة والكرامة والرفعة » (١)

وكان فى لقاءاته الخاصة يقرأ « لكيتس » ويهزه الألم ، وتعتصر قلبه أحزان نبيلة ، وهو يتحدث إلى جلسائه عن غرام كيتس للفتاة : « فانى براون » والتى وصفها شاعرنا بالحمقاء لأنها لم تعرف كيف تنعم بين أحضان شعره ودفء عواطفه وصدق مشاعره » (٢) .

يتضح من هذا ثقافة شعرية ونقدية وإجادة للغات العربية والفرنسية والإنجليزية وآدابها ، كما يتضح تأثره بالاتجاهات الرومانسية فى الشعر سواء على يد المدرسة الإبداعية فى فرنسا وإنجلترا أم اعجابا بالتيار الجديد الناشئ على يد مطران وجماعة الديوان .

لكن أهم ما حققه فى تلك المرحلة هو قيامه بتكوين جماعة أبناء الغدير « عام ١٩٢٨ وهى جماعة تهتم ببعث الشعر العربى العاطفى ، ويقوم

---

(١) من رسالة بعث بها إلى صديقه الشاعر « بركة محمد » بتاريخ ١٤ من مارس سنة ١٩٢٣

(٢) رسالة أخرى بعث بها إلى الشاعر بركة أفندى بتاريخ ١٩ من يوليو سنة ١٩٢٢ . وبركة أفندى شاعر مطبوع ، وكان وكيلا لمكتب « تلغراف بلقاس » .

منهج الجماعة على حفظ هذا الشعر وإلقائه وقراءته ودراسته وذلك فى صحبة الموسيقى ، ثم العمل على نشره بين شعراء الأقاليم وأبنائها والإبداع الشعرى المتأثر بالألوان العاطفية ، هادفين من وراء هذا كما يقول الشاعر « فؤاد» إعلاء العواطف والسمو بها وإذاعة الجمال ونشره بين شباب الريف وتأكيداً لروح الخير والجمال والعدل وسعيا وراء جيل يؤمن بالعزة والكرامة والتضحية فى سبيل الآخرين للقضاء على الأثرة والجشع والطمع والخلافات الريفية الطاحنة » (١) .

وكان من بين أعضائها الشاعر « على محمود طه » الذى كانت تربطه صداقة بشاعرنا بحكم مروره ببلقاس خلال عمله ، وقد جمعتهما لقاءات القاهرة الشعوية فتوطدت بينهما صلات امتدت وقويت وقد حاول الشاعر « على محمود طه » أن يضم شاعرنا إلى « جماعة أبوللو « لكنه رفض مؤمناً بأن بداية التجديد ينبغى أن تبدأ فى الأقاليم ، وذلك من أجل خلق ذوق عام بين أبناء « النواحى » البعيدة عن القاهرة تحقيقاً للأصالة ونهوضاً بالشعر الذى يعانى سكرات الموت على يد جماعة ابتذلوه وقدموه رخيصاً للمناسبة وبخوراً يعطرون به أحداث « الميلاد » و« الزواج » ، والعودة من« الحج » و« العمرة «و « موالد الصالحين ولقد كان حريصاً على عدم نشر الشعر فى « المجلات « و« الصحافة اليومية « لأنه مؤمن برسالة الشعر الجمالية ، والتراثية فيما يتصل بقيمته الغنائية والانشادية ، وأن قيمته تكمن فى إلقاء شاعره له ، حتى تتأكد العلاقة بين الكلمة الشاعرة والصوت المعبر ، فلا فصل بين القصيدةومن ينشدها بل قد يكون بصوتهأكثر شاعريةو تأثيراً . وربما كانإلقاء الشعر فى مناسبات المجتمع الريفى والتفاف أفراده حول الشاعر ، وإعجابهم بطريقة الإلقا

---

(١) من رسالة إلى صديق يقيم بفرنسا لدراسة الدكتوراه فى القانون اسمه كما يتضح من الرسالة محمد عبد الحليم .

قد جعلت شاعرنا يؤكد على تلك القيمة الفنية للشعر ووظيفته التأثيرية والأساس النفسى عند سماعه والانفعال به ، ولا يغيب عن ذهننا « المنشد وتأثيره لدى « اليونانيين » والراوى وقيمته الفنية والتاريخية ، والتوثيقية لدى العرب . ومن هنا كان المنتدى الشعرى لجماعة « أبناء الغدير » حافلا بالشعراء ذوى الإلقاء المؤثر ، ويتموج الشعر تصاحبه الحركات المجسدة وترافقه الموسيقى الصادرة من « العود » يضرب عليه شاعرنا باعثاً فى الأجواء أرق الألحان وأعذبها مصطنعاً جوا موسيقياً مصاحباً للالقاء الشعرى . فكان بدوره هذا ، وبشعره الذى فجرته الفواجع العاطفية واصطبغت به مرحلة ما بين (١٩٢٤ — ١٩٣٧) أهم معبر للشعر الرومانسى الذى نادى به « الديوان » و « المهجر » ر « جماعة أبوللو » إلى الإقليمية وشعرائها ، ويمثل مرحلة انتقال ومخاض الشعر الرومانسى الحديث ، فهو تلميذ مخلص لرفقاء الديوان « العقاد والمازنى « وشاعره « شكرى » ورائد اتجاهه « خليل مطران » ورفيق موهوب لشعراء المهجر وزميل لجماعة « أبوللو » ورائد كل هذه الاتجاهات ، ودعواتها التجديدية لدى شعراء لا الأقاليم مابين « المنصورة » و « كفر الشيخ « و « دمياط » « طنطا » لقد تلاقت كل تلك التأثيرات و « المؤثرات » ، والاهتمام الصاعد بالشعر ورسالته مع قلب أفعم حبا للحياة ، والكون ، فكانت المرأة بجمالها ، وتأثيرها ، وأسرارها ، وعالمها الأنثوى رمزاً لهذا الحب فسكب الشاعر شعلة حياته التى كانت تخبو على عجل فى قصائد شعرية رائعة تصرخ بعذابات العاشق ، ويولد فيها الحب ثم يذبل فيموت ويبعثه الشاعر مرة أخرى ليحكى ماضيه الدفين جمرات الشوق والحرمان ، وواقعه المحروم من لحظات اللقاء ، وتجربته المريرة يوما وراء يوم مع المرأة الكائن الذى تتبدى قوته فى ضعفه وإخلاصه فى غدره ، ووفاؤه فى نكوصه ، وجماله فى قبحه وعذ اباته فى أمنه ، لكنه وبسبب هذا حبيب إلى الشعراء وقبلة شعرهم ومهوى عشقهم ، يحملون له قلوبهم سديما عاطفيا لايقدر الإنسان

مهما أوتى على حمله ، فيرسلون شعرهم فيضا سخيا ، وصوراً تجيش بها العواطف ، وتفيض ، المشاعر ، لتتحقق سعادتهم ويجدوا فى شعرهم رفيقا يبوحون له ، ويشركونه فى التعبير عن آلامهم وهكذا أحب شاعرنا المرأة ، وتجرع بسببها كل ألوان العذاب حتى الثمالة التى أترعت بها كئوس حياته حتى النهاية ، وكانت رحلته مع الشعر خلال مرحلته الأخيرة بمثابة شمعة يستضىء بضوئها عساه أن يجد الغائب الذى لا يعود ، والغادر الذى لا يتوب والقوى الذى لا يلين ، والظالم الذى لا يرحم ، والبخيل الذى لا يجود . ويطول البحث ، وتتمدد لحظات الانتظار ، والشمعة تتوهج اقتراباً من الاحتضار وإعلان الرحيل ، ويكون شعره هو ناعيه ومشيعه إلى يومه الأخير .

إنى أموت ولست أرغب فى الدنا ... مادام قلبك صدنى وجفانى
فإذا مررت على القبور فسلمى ... فعسى سلامك فى البلى يلقانى
وقفى على قبرى ، وقولى هاهنا ... دفنت بغدرى فى التراب أمانى
وضعى الزهور إن دفينه ... فى العيش كان يميل للريحان
وترفقى فهناك فى ثوب البلى ... زين الشباب وزينة الشبان

أو أن يكون أداة توصيل وتعبير عن مكنون القلب ، ولاعج الشوق ووثيقة مكتوبة بدماء القلوب على صدق العاطفة ووحدة المعشوق .

قسما بثغرك والعيون السود ... ماخنت يوما فى الوفاء عهودى
لكن وأدت الحب بين جوانحى ... يالوعتى من ذلك الموءود

فالمثل الأعلى فى الشعر الذى تغنى فيه شاعرنا بحبه العذرى وبنزوعه الإنسانى هو الحب ، والبطل الحقيقى فى هذا الهتاف القلبى هو المحبوب ، ومن الحب والمحبوب أخذت مجموعة أشعارة بعداً روحيا يتمثل فى تحول الأعمال الشعرية

إلى وجدانيات عامة عاشقة للحياة ، ومتألقة بالصفاء الإنسانى ، ولهذا كان شعره تصويراً للحب العذرى ، ونزوعاً للعالم الإنسانى .

ومعنى هذا أن شاعرنا فى سلوكه الفنى والاجتماعى إنما يفصح عن موقف أصيل يقفه الفنان المرهف والإنسان المفعم رغبة نحو العدل والحق، ثم إن انصراف الشاعر عن همومه وأمراضه إلى حبه وهموم قلبه هو فى حد ذاته موقف من قبل الشاعر بألا يكترث لما يجرى له أوحوله إلا بمقدار ما يمس عاطفة الحب ونوازع الحق والعدل ، ولو شئنا أن نبحث عن تعليل هذا لوجدنا هذا التعليل فى عناصر شخصية الشاعر ومكنوناته الفطرية وطبيعته الإنسانية والفنية

من هنا تنبثق وتتضح رسالة هذا الشاعر فى مجتمع لم يعرف الحب إلا على أنه علاقة أثيمة بين الرجل والمرأة ، ولم يعرف شيئا عن الإنسانية إلا بمقدار ألاّ يغطى على الأثرة والفردية والتعالى الاجتماعى والطبقى واستئثار القلة بمعظم خيرات الحياة ، وعلى هذا النحو يتبين ويتأكد أن هذا الشعر ليس مجرد تناول لموضوعات عاطفية وإنسانية ولكنه عمل أخلاقى وحضارى ، وموقف جاد ومسئول يقفه إنسان مغرم بالحياة عاشق لها محب للانسانية إلى أبعد الحدود ، وهو شعر يعبر عن موقف ثورى تقدمى إنسانى فى إطار روحى متدين الشىء الذى جعل من تلك الحياة القصيرة الممتدة مابين ١٩٠٢ — ١٩٣٧ ، شبيها بحياة الصالحين ورواد الحقيقة والخير والجمال وهى حياة تحمل على أمتدادها القصير أعباء الفن ورصد تحركه فى إطار وعى الشاعر بذاتيته الخاصة وبيئته الإنسانية العامة على أساس من تكامل التجربة المتصلة بالحب ونوازعه الإنسانية .

(ب) العطاء الشعرى وعناصره : —

شاعرنا فؤاد « ضمن شعراء الغزل العفيف » ممن أوقفوا شعرهم على فنهم الشعرى وعاشوا زمنهم الشعرى ، والوجدانى وهم يتغنون

بآلامهم ويعيشون فى خيالاتهم آمال اللقاء ، والقرب ، والوصال ومن هنا جاء شعره نغمة حزينة موصولة بقلبه ، مفعمة بأحاسيسه متوترة بتوهجات نفسه وروحه ، كما أن شعره هذا ليس مجموعة قصائد تتميز بموضوعاتها بل مقطوعات حملها كل ما يجود به خاطره ، وتلهج به نفسه ، ويتألم له ضميره حينما يرى الجوع ، والظلم ، والمرارة الاجتماعية تشوه حياة مجتمعه الإنسانى .

فشعره يعبر عن مأساة شاعر يحاول أن يحقق فى مجتمعه أنبل العواطف واجمل الأحاسيس ، وأصدق مشاعر الحق ، والخير ، والعدل حيث يبدو الحب أمامه هدفاً يسعى إليه ، ومثالا للإنسانية الحقة يستحيل تحقيقه بوسائل غير الفن ، والشعر ،والشاعر فى شعره— الذى هو قصيدة متكاملة بمقطوعاتها الغنائية— يتذكر روعة الطفولة والفطرة ، والبكارة ، والطهارة ، أى طبيعته الإنسانية المفطورة ، فيكون « الحب العذرى » بنقائه وصفائه ، وآلامه وحرمانه ، وتوترات الروح ، ورعشة القلب وخفقاته ، و« النزوع الإنسانى » بقيمه المتمثلة فى الحق ، والعدل والخير ، والسلام ، والأمن ، والإيمان الصوتين الغالبين ، والسائدين على المقطوعات الغنائية . صوتان إثنان يسودان الشعر وينبعثان من عالم الشاعر : صوت « الوجد » و « صوت النزوع الإنسانى » أما الأول فيتميز بوحدة الفن الشعرى ، فليس له شعر خارج إطار الغزليات ، ولم يقل بيتاً واحداً فى غير الغزل وإن قال فموشح بأنينه ، وذوب وجدانه ، وفكره ،وملفوف فى لفائف قلبه ، ومشحون بعواطفه الجياشة بالحزن ، والألم . والحب عند شاعرنا هو طبعه ، وطبيعته ، فليس من ذلك النوع الذى تولده الرغبة الجامحة ، أو الحس المادى ، رغبة فى التهافت على مواطن الجمال الحسى فى المرأة ، وإنما الحب عنده له غاية أبعد من رغبات الحس ، أو مطالب الجسم . وغايته أن يظل شاعراً يمتح من عواطفه ، ويتصل نغمه الشعرى بقلوب الآخرين وأن يظل فى قلق فنى ، وذلك بأن يكون شاعراً موصول العطاء ، وصاحب توق

إلى عالم الجمال ، وسيظل لهذا يبحث عنه فى مواطنه ، وعن الحب فى منابته ، فليس كالحب قادحاً للوجدان وحافزاً للشاعرية وليس كالحب مرسلا لأحلى كلمات الشعر ، ومحلقاً بها فى سماوات الفكر ، وأجواء الأحاسيس ، والمشاعر ، ويسبح بها ، ومعها فى بحور الخيال ، وصفاء النفوس ، ونقاء القلوب .

« ونزوعه الإنسانى » هو حقيقته ، وطعم وجوده ، والإنسانية عند شاعرنا هى مجتمع التعاطف لا التصارع ، والود لا القطيعة ، والتواصل لا التدابر ، فليست نزعته الإنسانية دعوة إلى تقنين المجتمع اقتصادياً وسياسياً وتذويبه طبقياً ، أو تقريبه اجتماعياً ، وإنما يدعو إلى مجتمع تنمو وتتكاثر فيه دوافع الخير ، ودواعى التعاطف ، والمحبة . إذ القانون لا يسد — عنده — مسد الفطرة وما ينطوى عليه الإنسان من حب وإيثار وتضحية ووفاء .

فهذه الصفات لم تخلق إلا حيث وجد الإنسان ، وتشكل المجتمع الإنسانى ومهمتنا الأولى هى فى الكشف عنها ، ودفعها إلى الصدارة حيث القيادة الصحيحة للمجتمع ، فالمجتمع عنده هو المجتمع الإنسانى المحكوم بالفطرة السليمة . لا مجتمع القوانين ، والرغبات الفردية ، والأطماع الطبقية فإذا تحقق الحب بين أفراد المجتمع ، صحت العلاقات ، ونجحت القوانين فى تحقيق القيم الحضارية والإنسانية معاً ، وفى رأيه أن نجاح المجتمع الإسلامى يعود إلى تحقق دوافع الحب والتعاطف والإيثار خلف الأشكال القانونية للمجتمع فالحب دينه ومنهجه ، وغايته ، وهو بهذا يلخص تجربة الإنسان على الأرض ورحلته عبر الديمومة الزمنية .

والشاعر فى شعره لا يقدم لنا شعراً مؤرخاً لحياته فى إطار الزمن ، أو يعطى تخطيطاً لمراحل حبه ، ويحكى لنا قصة هذا الحب لكن شاعرنا فى شعره يمثل لنا القمر فى ضوئه والشمس فى أشعتها فهو يتدفق شعراً ،

وعاطفة ، وشعوراً متشحا بالشكل المقطوعى الغنائى مبتعداً عن لقصيدة وأجوائها قدر الإمكان . ونحن أمام هذا اللون الشعرى العاطفى مضطرون إلى تتبع العاطفة الحبة فى أبعادها ، وأجوائها على أنها عاطفة إنسانية ملك للناس فى أصدق حالاتهم ومشاعرهم ، عبر عنها ، وصورها — شعراً — شاعر عذرى كان مخلصاً حينما جعل من قلبه ، وقلوب الآخرين ينبوعاً للصدق ، والوفاء وجعل من وجدانه ووجدان الآخرين مصدراً فنياً ، وقدرة تعبيرية عن الذات الإنسانية ، ولهذا كان الشعر فى مجموعة قصيدة موحدة النغم ، والنفثة الوجدانية ، والدفقة العاطفية ولا يدل هذا الشعر على صاحبه دلالة تاريخية ، وإنما يكشف عن أعماقه ، وأجوائه ، ويدل بأصالة على الأعماق الإنسانية ومخزونها العاطفى ، فهو مرآة نرى فيها الإنسانية بكل مشاعرها وعواطفها ، وإحساساتها ، وليس قصيدة تدل على صاحبها ، ومن هنا جعلت « وجده » فى إطار مراحل عاطفية لازمنية موضحاً أهم عناصر الشعر العاطفى المتمثلة فى الحب والهيام ، ثم الصدو الحرمان ، ثم الرحيل والفقدان ، كذلك نزوعه الإنسانى بحقائقه الاجتماعية ، والطبقية .

أولا : وجده ومراحله كما صوره الشعر :

(أ) ... مرحلة الحب والهيام :

هم الشاعر أن يبحث بطهارة قلبه ورهافة حسه ودقة مشاعره ونبل عواطفه ، عن موطن وحى ، ومبعث إلهام ، ومهبط شعاع ومصدر دفء ، وكوة نور ليصنع أغنية للحب ، وللحب العذرى بعذاباته وهيامه وأشواقه ، ووجده ، وصبواته ، داعياً إلى التواصل بين المحبين والتآلف القلبى بين أفراد المجتمع ، راغباً عن الحوائل ، والموانع التى تمنع دون ذلك مهما كانت طبيعتها ، وحقيقتها الاجتماعية أو العقيدية ، فمى الحب انعتاق ، وانطلاق يمنح المحبين لحظات النقاء ، والخلاص ، ويصل بهم

إلى عالم القرب ويحقق لهم الاقتراب المنشود ويضع فى أيديهم مفاتيح النفوس البشرية الموصدة ، وفيه ترى الإنسانية قدرها الذى به تحيا ، وتعيش ، ومصيرها الذى إليه تسمو وتذوب فى عالم المثل محاولة تحقيقه على وجه الأرض ، وتسعد به حينما تستعيده لبرشدها ويوجهها ، وفى الحب حقيقتها التى لامفر منها ، فسنحب شئنا أم أبينا ، وستنبض قلوبنا به ، وتهمس شفاهنا بكلماته وتلهج ألسنتنا بأغنياته لأنه بالحب قدتحمل الإنسان مسئولياته على الأرض وتحمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها ، وحملها الإنسان لأنه قادر عليها بعواطف الحب التى فطر الله الإنسان عليها ، وبه وضع الإنسان خطاه على هذه الأرض فكون الأسرة ، وصاغ المجتمع وتنازل عن أشياء ثمينة ليسير الركب ويتجه نحو الهدف الذى أراده الله من خلق الناس ، وبذلك اكتملت الحياة حقيقة ، وكياناً ووجوداً ، وتقدماً ، وأشرقت خيراً ورحمة ، وعطفاً ، تسامحاً ،واستضاءت بهاء، ونوراً ، وجمالا ومحبة . وما الرسل ، والأنبياء ، والأطهار من البشر إلا رسل الله لتحقيق المحبة بين الناس على الأرض ، والعدل ، والخير فيهم حتى يمكنهم أن يسترجعوا ما فاتهم من نعيم ، وسعادة افتقدوها عبر رحلة الشقاء والتهالك ، والتهافت ،والاغتراب ، ولينتزعوا أشواك الأحقاد والبغضاء والكراهية ليضعوا مكانها بذور الخير ، والحنان .

يمتلىء الشاعر بتلك الأحاسيس، والمشاعر ، وهو فى نخمرةمن أخاسيسه تلك وزحمة من مشاعره النبيلة يدعو إلى الحب مبتهجاً لمجتمع الوصال ويبوح مستسلماً ، متوسلا بين يدى أعداء المحبة ، والحياة أن يتركوا شجرته تنمو ، وتثمر ، وتظلل الجميع ، ولا يحولوا بين القلوب وبين ما تهواه وما تصبو إليه :

ياحائلا بين القلـــو ب ووائد القلب الطـــروب
هـــلا عـــرفت بأنـــه من فـــرط تعذيب يذوب ؟
دعـــه ولا تفتك بـــه ما الحـــب إلا للحبيب

ثم يدعو البشر للاغتراف من فيضه والارتواء من نبعه الذى لا ينضب وينابيعه التى لاتجف :

فدع الأحبـــة والهـــوى فالكل منـــه له نصيب
وامسح بكـــفك دمعـــة من طـــرف مخـــزون كئيب
وارحم فـــؤاداً جمعت فيـــه المصائب والكـــروب
إن الخطوب أشد من حرمانه ؟ أى الخطوب ؟
أى الذنوب جنى فيحـ رق قلبه ؟ أى الذنوب ؟
يادولة الحب اشهدى هل فى المحبة من معيب ؟ (١)

يصور عالم المحبين ، ومجتمع العشق ، ويدافع عن مقوماته ومبادئه متعاطفاً مع المحبين والعشاق ، واجداً فيهم ضحايا الحقد ، والبغضاء .

والشاعر فى استعماله « لياء النداء » فى « يا حائلا » و « يادولة الحب اشهدى » يعبر عن حالة وجدانية مفعمة بالرجاء والاستسلام واسترجاع التجربة الإنسانية محاولا بهذا أن يدفع عن الحب ، ودولته الأخطار والعواصف ويصطنع له بتعبيراته ، « تعذيب » ، « يذوب » ، « دعه » « لا تفتك به » جسوراً تربطه بالحياة ، والديمومة وذلك عندما تتوالد الحياة من الموت ، وتشرق الحيوية من الخمود ، والخمول وينهض الوجود من العدم .

---

(١) ديوان « الفؤاديات » من قصيدة « يا دولة الحب اشهدى » ، ص ٤١ — ٤٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٣٨ .

وكلمات « امسح بكفك دمعة من لطرف الكئيب المحزون » إنما تشير إلى الصدق النفسى ، والوله الأصيل لدى المحبين هو تعبير منهم عن أحزان الإنسانية الدفينة ، ومحاولاتها الخلاص ، والانعتاق ، والانتصار على ضعفها ، وخطيئتها ، وقوله : « يا واثد القلب الطروب » إيمان بأن الحب هو الحياة . فهؤلاء الذين يحولون بين القلوب ، ويئدون قلب المحبين إنما هم أعداء للحياة .

ورحلة الحياة بدون حب لن يقدر لها الاستمرار ، والانطلاق .

ولقد نشأت الحياة ، واستمرت ، وذلك حينما ضمن الله لها الحب قواما ، ورفيقا ، ومع ذلك فكلمات اشاعر توضح مايفعله الحب بالنفوس إنه يملؤها بالأحزان ، ويعتصرها بالآلام ، ويستنبت فى تربتها أعشاب الحياة ، ويهز فيها مشاعر التعاطف و لإحساس بالغير وإسعاده ، وتحمل المسئولية من أجله ، فبالحب تصبح للأشياء معنى فالأحزان نبيلة ، ووديعة ، وهادئة ، ومسئولة ، والآلام حلوة ومعطاءة .

*** * الامتزاج الروحى والذوبان الجسدى :**

هل فى الدنيا ما هو أجمل من فناء المحب فى المحبوب . . ؟ وما هو أبعث للحيوية ، والشاعرية وأذكى للشعور وأطلق للوجدان ، واسمى للقرائح ، وأشجى للنفوس من الامتزاج الروحى والذوبان الجسدى للأحباب ، والعشاق ؟ وهل فى الوجود شىء يحس به الشاعر ، والفنان ، ويطرب له ، ويغنى من أجله إذا هو لم يحس بالحب ، وطعمه الروحى ، ويتذوقه من لمى محبوبه ، فإذا علمنا أن ليس على وجه الأرض شىء أبعث للدفء والحيوية والمتعة الروحية من بهجة الحب ، وأن ليس فيها شىء أجود فى العناء الشاعر من وحى قبلة يطبعها الأحباب على صفحات الأرواح رمزاً للامتزاج الروحى ، وسلاما وأمنا بين البشر المكدودين والباحثين عن لحظات الصفاء فى رحلتهم عبر مرحلة الميلاد ، والفناء أقول إذا علمنا

هذا فلا نشفق على الشاعر ، ولا نبخل عليه بمثل تلك اللحظات التى يحس فيها بالامتزاج ، والذوبان فى قبلة يغمر بها الروح الإنسانى ، ويسكبها على شفاه المحبوب الذى هو فى الحقيقة رفيقنا عبر رحلة الحياة إذ لا بد للحياة من وجود إنسانى يعبر عنها ، وعن طموحاتها المـادية والمعوية ، وعن إرتقائها الحضارى ، والإنسانى ؛ومن هنا كانت حاجتها إلى وحدة بشرية وفاعلية إنسانية تمحى فيها التناقضات ، والأحقاد ، وتعمل بقوة الرغبة والمحبة والانسجام والتوازن وتحارب بل تقضى على البيئة المعادية للوجود الإنسانى التى لا تتورع عن خنق الحياة لأنها تعيش خارج إطار الحب الإنسانى ، ولأنها لم تطعم لحظة الصفاء والإنسجام ولم تصبح بعد — بحكم التقدم الآلى — صالحة لمعايشة التوازن الإنسانى .

وشاعرنا يسجل تلك اللحظة التى يتولد فيها الوجود من العدم وتومض النار من الجمر الخابى ، وينتعش الإنسان إنتعاشا يربطه أكثر بركب الحياة، وتتمثل تلك اللحظة فى لقاء صادق يربط بين الأحباب : —

يا قلب كيف جمعت وقت عناقها ... نار الهيام وجنـة التقبيـل
ومزجت بين حلاوة ومرارة ... رشف الرضا وحسرتى لرحيى ؟!
يا عقل كيف بقيت بعد فراقها ... وأنرت فى الليل البهيم سبيلى ؟
واسطعت أن تلقى سعادة ضمها ... بعد القنوط وبعد طول عويلى ؟
فى لحظة نفرت وعادت بالرضا ... كيف استطعت تحمل التحويل ؟

إنها لحظة تنفرد بقوتها ، وأثرها على من يعيشونها، وهى بالأحاسيس والمشاعر النامية فوق قوة إحتمال الإنسان ، اللهم إلا إذا كان هذا الإنسان فى مستوى اللحظة عطاء ، وصفاء ، ونقاء ، والشاعر يستمر فى معايشة ومعانقة تلك اللحظة محاولا تتبع معطياتها ، وما توحى به بكيانه ، ونبض قلبه راسما صور التلاقى ، والنزوع نحو مثل اللحظة ، وقيم العطاء عند

المحبوب ، مصوراً بأحاسيسه ووجدانه اللهفة الإنسانية ، والشوق الإنسانى نحو اللحظة التالية ، وهكذا تتحول حياة الإنسان إلى لحظات تنقيه وتصفيه ، ليصبح قادراً على معانقة الحياة والاستمرار بها نحو غاياتها النبيلة :

عادت إلى وسلمت لما رأت ... ذل الغرام يصيب غير ذليل
العطف والإشفاق من أخلاقها ... والله ميزها بكل جميل
ياطرف قل لى : هل رأيت حمائما ... وقت العناق وساعة التدليل
أم هل بهرت فما نظرت لحسنها ... وشغلت بالتكبير والتهليل
الله أكبر والعيون تقابلت ... والدمع للأحباب خير دليل
والقلب يخفق واللسان معطل ... والثغر يلهو باللمى المعسول(١)

والشاعر فى استعماله للنداء أسلوبا للتنوع المعنوى ، إنما يصور الاندماج والفناء : إندماجه فيمن يحب وفناؤه فى زمن اللقاء ، وإنعدام مواطن الإحساس ويقظة مهبط الجمال ، وملتقى لرؤية والرؤى ، ثم التواصل بين المنادى والمنادى عليه بين الكيان المادى ، والحقيقة الروحية وأخيراً التدفق الشعورى المفعم بالاستسلام ، والرجاء فى أن يذوب الجواب ، ويتلاشى ليظل النداء قائما ، والتساؤل مستمرا .

ثم إن الأسئلة فى مجموعها أداة توصيل ، وإبراز للواعج النفس والمضمون الداخلى للمحب ، والبوح بمايضمن القلب فالتساؤل تحايل على الصمت ، ووسيلة للإعتراف الذى يتيح للمحبين المتعة فى مواصله الحديث عن معاناة الأحباب ، والتقابل فى الألفاظ بين « الحلاوة » و « المرارة » ، و « نار الهيام » و « جنة التقبيل » ... إلخ توضح المعاناة والأشواك التى يفترشها المحبون طوعا ، فليس المنال سهلا ، كما أن الرضا لا يدوم ، واختلاس لحظات الرضا والوصال بمثابة اعتصار الصخر ليجود بالماء ، أو أن يهز

---

(١) من قصيدة « القبلة الحارة » ، ص ٥٦ — ٥٧ .

الإنسان بجذع النخلة كى تسقط رطبها ، أو تلمس الدفء فى الليل البارد، والنسمة الرطبة فى الصيف اللافح ... التقابل فى الألفاظ ، والتجانس فى التعبيرات والازدواج فى الجمل الشعرية يشكل بناء شعريا يستطيع الشاعر بواسطته أن يشكل جوه النفسى ويمزج بين هذا الجو وما يعبر به من تشكيل شعرى يتأكد هذا — أيضا — فى أبياته الشعرية التى تلتقى فى أدائها ، ولغتها بالجو النفسى للشاعر المحب حيث يتحقق أداء نفسى يصور مباهج العذريين حينما تصبح الحبيبة جمالا روحيا أخاذا لا أنوثة مادية آسرة .

يا طرف قل لى ،هل رأيت جمالها وقت العناق وساعة التدليل
أم هل بهرت فما نظرت لحسنها وشغلت بالتكبير والتهليل

أو عندما يكون اللقاء فناء ، والالتقاء ذوبانا :

الله أكبر والعيون تقابلت والدمع للأحباب خير دليل
والقلب يخفق واللسان معطل والثغر يلهو باللمى المعسول

إلى أن يصبح الحب امتلاكا وللمحب حق التصرف وسرعة الحضور :

سجلت بالتقبيل حبك فى الحشا وملكتنى من ساعة التسجيل

و« التسجيل » كلمة يعرفها الريفيون أكثر من غيرهم . فهى تعنى عندهم توثيق « الأرض والعقارات» ، ولكنها تدل فى أفقهم الاجتماعى الأوسع على الولاء ، والمسئولية والوفاء ، وقد استعملها الشاعر ليصنع بها جسراً بين ما يحس به نحو الحبيب وبين مجتمعه الريفى ويستهدف بها جعل الحب قضية حياتية ومسئولية إنسانية تجاه الحياة وبنائها وتنميتها وتحويل الدوافع نحوها إلى عطاءات ، وخلق وإبداع حتى يتحقق لها بفضل الولاء الإنسانى التسامى والترقى .

• **البوح على لسان الطير :**

وإذا كنا قد رأينا شعر شاعرنا « فؤاد » روحا هائما يسرى فى الحياة

والوجود ، والكون ، والمجتمع الإنسانى يبشر بأجمل العواطف وأنبل الأحاسيس ويحمل فى عصرنا الحديث ذى النزعة المادية ، مصابيح العذرية ، والبكارة ، والشفافية والصفاء نيابة عن شعراء العفة و « والأفلاطونية » ليرسم لنا فى شعره همس المحبين ، وعناق أرواحهم ومكابدة العشاق ، والهائمين ، فإننا نراه — أيضا — يهيم بروحه العذب بين الأطيار يبحث هناك عن موطن الحب ، ووطن الروح ، ويستنطقها أنبل المشاعر ، وأرق الأحاسيس ، ويندس بينها ، فيسمع شكواها ، وعتابها ، ويشفق من حنينها وأنينها فيصور لنا ما يجىء على لسانها وذلك فى قصيدته التى تخيل فيها ذكرا من « اليمام » وأنثاه يتناجيان ، ويتعاتبان فى روضة القصر بين الآس ، والبان ، والضفاف الخضر ، والعسجد المذاب ، ومسواحق النخيل ، وهتاف الكروان ، وهدأة الليل ، ولألاء البدر ، وألق السماء وتلتقط أذناه صوتا باغما مفعما بالأسى ، ومدبجا بالأنين يصدر عن « ذكر اليمام » فيلتفت فإذا به واقف يبكى أليفته ، فتثير هذه الصورة أحزانه ، وتطلق لسانه بشعر يبوح فيه على لسان اليمام بما يحسه ، ويعانيه ، ويكابده ، وكأنه يسقط على عالم الطير بعضا من تجربته الإنسانية التى تعانى فى سبيل الود ، والامتزاج بقيمها الرفيعة والتى مازلت رهن الأغتراب ، والضياع

ويأخذ شعره شكل الحوار بين «ذكر اليمام » ، و « أنثاه » رغبة منه فى التواصل ، والعتاب وصولا للود والامتزاج ، يقول الشاعر :

بالأمس قبل شروق الشمس هيجنى ... صوت ضعيف حزين خافت فان
فقمت منزعجا ألفيته ذكرا ... من اليمام كئيبا رأسه وان
وجدته واقفا يبكى أليفته ... فى روضة القصر بين الآسى والبان
يقول : تبالد هوى حين أبعدنى ... عنها وأبعد عنى خير خلانى
وفوق غصن قريب مائس وقفت ... يمامة صوتها الصداح أبكانى
سمعت بينهما عتبا سأذكره ... مدى الحياة وأرويه لإخوانى

ويأخذ الحوار بينهما فى تنمية المشاعر ، وتكثيف العواطف وتطوير الأحداث :

يقول :

الله أكبر ما الله من ثان ولا عن الحب لى من مله ولاثان
أعالج النوم فى ليلى فيمنعه فيض الغروب وتسهيد بأجفانى

فترد الأنثى :

أواه منك ومن قلبي ومن زمنى هجر وصبر وإشعال لنيرانى
مضيت بعض شهور كلها أمل يضيء لى كلما تشتد أحزانى
والآن أصبحت لا شيء يعللنى ولا سمير سوى دمعى وألحانى

فيرد عليها الذكر :

الهجر منك ، ومنى الحب أحمله والغدر منك ،ومنى دمعى القانى
منك الصدود ، ومنى الشوق متصل كيف السبيل إلى ترك وسلوان ؟

وهكذا يدور حوار شعرى فى شكل مسرحى يرهص بانتشاره فى شعرنا الإقليمى الحديث ، ويؤكد التأثير الإيجابى لرواده على إنتاج شعراء المرحلة بالامتداد الفكرى والفنى لفترة ما بعد الحرب الأولى وتسير فى الاتجاه القصصى الذى عرفه شعراء الغزل العذرى ثم أن الأبيات تحمل كلماتها خصائص لغوية ، وتعبيراتها تدل هى الأخرى على طبيعة أسلوبية تتفق والرسالة الفنية والروحية للشاعر .

فالكلمات : « أعالج النوم » — « فيض الغروب » — « يصبولى » « يقسط لى » توحى هى الأخرى باستمرار الحرمان ، والفقدان وتطوافه عبر جسور الأشواق ، والوصال ، فلم تمنحه طبيعة الكلمات لحظة زمنية

خالصة يعيش فيها حبه العائد ، يستعيد خلالها وصاله ، وأشواقه ، وإنما قصد إلى مثل هذه الكلمات ليدل على تجدد الحنين ، والمحاولات اليائسة المبذولة من لدن المصادر التى نؤمل فيها ، وفى عونها دائما . وفى أساليبه : « من وهم » — « تغريده فى الحى أحيانى » وتقديم المبتدأ فى « الهجر منك » حينما يكون على لسان الأنثى ، وتأخيره فى « منى الحب » على لسان الذكر ، وهكذا فى باقى الأبيات إنما يؤكد أثر الحب فى إنعاش جذور الحياة ، وتجميلها بمبادىء الوجود والحق ، والخير ، كما أن التقديم ، والتأخير يوحيان بقوة التعلق ، والمفارقة .

والعذريون لا يتعاملون كثيرا مع الواقع ، وإنما يصنعون من خيالهم عالما يتمكنون بواسطته من تحقيق ما يعجزون عنه فى عالم الواقع والحقيقة فخيالهم يمنحهم شفافية ، ونقاء ، وصفاء يظللون به كل ما يلمسه حسهم المخبوء ، ويعطيهم القدرة على تحقيق اوصال ، واللقاء ويسبحون فى عوالم بللورية تخلع على المحبوب صوراً تقترب به من قيمهم ومثلهم حول الجمال ، والحب ، وتجسدهم المحبوب فى صورة تحاكى مايختزنه خيالهم من صور المحبوبين ونماذج الحمال الإنسانى الآسر ، وقد راح شاعرنا بعد أن أدار حوارا بين « اليمامتين » يتحدث فيه عن قلبه وما يعانى — يتلمس الوسائل لمعايشة الحب فى عالم الواقع ، فلما تأبى عليه مايريد ، وتعذر عليه اللقاء فى وضح النهار ، ويقظة العقل والحواس تلمسه فى عالم يصنعه من خياله ، ويصنع خلاله محبوبا يكون طوع قلبه ، واستطاع أن ينسلخ من واقعه اليائس ليعيش ولو للحظات عطاء الحب ، ووفاء المحبوب .

وهو يرى أن الهجر ، والخلف يتفقان وطبيعة الأنثى حتى يظل الذكر يبحث عن حياته ، وقيم وجوده وهكذا تدور الحياة بين قوة مفارقة ، وقوة منجذبة مشدودة إلى هدفها الذى يبتعد ، ويقترب

بقدر ما نحاوله من صبر ، وأناة ، ومعاناة فى سبيل اللحاق ، والوصال .

والأبيات فى مجموعها تقوى لدى القارئ الإحساس النامى بأن الشاعر لديه شعور قوى بأن لديه رسالة يود إبلاغها للناس كل الناس . . . وهى رسالة تتلخص فى توطيد المحبة ، والوئام بين البشر . . . . بل يؤكد حقيقة استقرت فى العقل والوجدان معا هى رغبة الشاعر فى توحيد العالم — إنسانياً وكونيا — كله داخل قلبه قبل أن ينعتق إلى العالم الآخر الذى تسقط فيه كل الحواجز بين مخلوقات الله ، و يستمر الشاعر فى حواره الغزل بين « الذكر » و « الأنثى » محاولا بهذا الحوار تنمية العواطف ، واستلهام القلب ، والوجدان معا أرق المشاعر وأنبل الفضائل ، والوصول بهما إلى العش الدافئ الذى يتمناه الشاعر ، ويحققه لطائر اليمام فى مملكة الخيال الشعرى :

فأقبلت نحوه تهتز من طرب ويمما العش فى تيه ورضوان

والقارئ لهذه القصيدة يلاحظ أن الشاعر تتملكه عاطفتان : عاطفة يجيش بها قلبه ، وعاطفة يتعاطف فيها مع فنه ، ولغته ، وتعبيراته وكثيراً ما تتغلب الأولى فينشغل الشاعر بإبراز كوامن نفسه ولا يهتم بصياغة فنه ومن هنا نلتقى فى قصيدته بعفوية لغوية وسرد ، ونثرية لا تسمو إلى مطالب الأداء الفنى والنفسى لشاعر يشتق كلماته ، وتعبيراته ، وصياغاته من نبل أحزانه وسديم عواطفه .

ومما يشفع للشاعر فى ذلك بساطته المتناهية ، وصدقه وعفوية تعبيراته الشىء الذى جعله مغرماً بالتعبير عن حالاته النفسية والوجدانية ، معايشاً صبواته ، وأشواقه ، معبراً عن كل هذا بلفظ سهل مستجيب للسرد الذى تملك الشاعر فى بعض الأبيات ومع ذلك تجد له ولعاً — أحياناً — بالتوشيح ، والتجنيس اهتماماً منه بالأسلوبية ، والبنائية خدمة ، وتوظيفا

لإبراز أحاسيسه المنغومة ، والمتصلة بانفعالاته الصادقة بالوصل واللقاء ، والتمنع والهجران ، وما يتصل بعالمه النفسى من شد وجذب وقسوة ، ولين وعطف ، وحرمان .

وفى سبيل لقائه بالمحبوب يظل يحلق فى عالمه الخاص ، ويشتق من فيض وجدانه وبوح قلبه ، وهمس عواطفه صور اللقاء فى عالم الأحلام فيرى أن المحبوب قد حن عليه بنظرة ولقاء فتتمدد إغفاءاته ليعب من معين اللقاء بما يجعله يتوجه إلى الله أن يحققه ثانياً :

حنت على بنظـــرة استملاح وغدت تبادلنى كئوس الراح
حتى ثملت فما عرفت أنشوتى من ثغرها أم من سنا الأقداح
حـــورية لو أنها مـــرت على دار الجريح غدا بدون جراح

ثم يأخذ فى رسم الصورة المثلى للمحبوب .وانعكاس لحظات الوصال على نفسه فيقول :

حملت على إذا بسحر سكوتها وأنينهـــا وبطـــرفها الفضاح
حار الفـــؤاد ولم يجد بداله من أن يبـــوح بعبرة ونـــواح
حرمت جفونى من لذيذ منامها وجرى مسائى باسمها وصباحى

إلى أن يقول معترفاً بجمال هذا اللقاء :

حلم لـــذيذ لا أزال أريده يارب حققه بوصل وشاح (١)

– الامتزاج بصور الحب العفيفة :

والشاعر المحب تواق إلى مايثير فى نفسه من كوامن ويلهب فى داخله وقدة الحماس الفنى ، ويعتصرمن قلبه نبضه ويذكى فى الوجدان خفقاته...

---

(١) من قصيدة « حلم لذيذ » ، ص ٦٧ – ٦٨ .

لأنه بهذه الفعاليات يستمرئ اشتقاق تجاربه ، ومعاناته مع الحرف ، والكلمة والصورة من البقايا الخالدة المتأبية على الفناء ، والتى انتهى إليها التسامى المستمر لدى الشعراء ، والفنانين ، والمحبين بدله ، وشوق، وألم ، ومكابدة ، فمن هذه البقايا المتسامية ، ينبض القلب ويفيض بأنبل العواطف الإنسانية التى تدور حول رموز وما نبقيه من تراث يظل خالداً ، ويكون مرقانا إلى العالم المتعطشة إليه أرواحنا ، ومنها يشهق القلم بترانيم ، وأناشيد ، وأغنيات هى فى الحقيقة لغة التعامل مع عوالم تفيض علينا بمثلها وقيمها وبالروح العظيم السارى فى كوننا ، وحياتنا. ومن الشعر ، والحب يصاغ — حينئذ — الكمال الإنسانى .

وشاعرنا محب صادق فى حبه ،وقلبه معلق بالخلاصة الإنسانية وبقاياها المتسامية ، وهو مفتون بالفطرة والبكارة ، والنقاء والشفافية ، وليس على وجه الأرض بيئة تمنحه كل هذا سوى الأرض وما يدور حولها من أفكار وآمال ، وبساطة ، ومجتمع الأرض بفلاحيه وطبيعته الريفية — لو ابتعدت عنه الحضارة المـادية ، والصراعات السياسية — صالح لتنمية العاطفة الإنسانية ، واستنبات الخلاصة الإنسانية ، وبقاياها المتسامية ، واصطحاب الفطرة ببكارتها ، ونقائها ، وشفافيتها ، ومن ثم تظهر العذرية والعفة أساساً للتسامى ، واستمراراً لها ، واستعادة لظاهرتها التاريخية حيث البيئة الصحراوية والبادية العربية . . . ومن هنا كانت قصيدته :

« عادة الريف » تعبيراً عن حبه ، ووجده ، وصبوته إلى ينابيع الجمال الأصيل واحتفاله بالصدق ، واستجابته لمواطن الخير ، والحق ، وفى الوقت نفسه تدل على شخصيته وعناصر الفطرة المتمثلة فى مقومات تلك الشخصية ، وهو فى القصيدة واضح فى معاناته ، وصريح فى تجربته وتنبع صراحته ، ووضوحه من قلب مفعم بالنقاء ، والشفافية وممتلىء

بالحب ، والولاء والوفاء لمن تعذبه وتؤرقه ، وتؤجج لهيب الشوق فى أعماقه وهو راض كل الرضا ، يراغب عن الحيـــاة ومباهجها فى سبيل القرب والتمتع بالجمال الهادئ البسيط لاه عن الحضارة والماديات ، وصخب الوجود بالبساطة وتعليل النفس باللقاء والغد المشمول بقرب المحبوب ويخاطب الجمال الوادع الأصيل فى غادة الريف قائلا :

نامى هنيئاً فى فـــراشك نامى فهـــواك رغم نواك عندى نام
هل تشعرين بما ألاقى من جوى أو تعلمين بلوعتى وهيـــامى؟
قضّيت عمرى فى غرامك صابراً واليوم ضاعت فى الهـــوى أحلامى
أبكى فؤاداً ضاع منى فى الهوى أبكى بدمع فـــوق خـــدى هام

ويستعطف هذا الجمال الذى استبدله بالحياة ، لأنه هو الحيـــاة الحقيقية :

يا من رغبت عن الحياة لحبها وســـوت كل تنعم لغـــرامى
وقيلت سكنى الريف كى أحظى بها ولكى أراهـــا صحبـــة الآرام
وأعلل الطـــرف القريح بحسنها وأشنـــف الآذان بالأنغـــام
وأصبر القلب الجـــريح بقربها وبقـــرب ما أرجـــو من الأيام

إنه الحب .. هو الداء ، وهو الدواء ، وللحب فى نفسه ، وكيانه منذ طفـــولته ، معنى له سحر ووقع ، وسره عنده من أسرار الكون والوجود ، وشعوره به شعور هائم ومشوق .

وبتوالى الأزمنة تحدد المعنى ، وقر الخاطر ، واستقر الشعـــور ، وتحقق الخيال ، وتجسمت الظنون حقيقة ، وتمثلت واقعاً ، فكانت ، « الريفية » ، « العذرية » الصورة المثلى لحبه وقد كتم هذا الحب ولم

يبوح به خوفاً عليه من الصد والهجران وتحمله راضياً صابراً متوحداً منفردا يقاسى آلام الهوى ولواعج الشوق والحرمان :

وكتمت حبى لا أبوح لها به وصبرت رغم تكاثر الآلام
وحملته فرداً ، وعشت معذباً هلا رثيت لوحدتى وسقامى؟
والليل أبعث فيه من حرق الأسى نارا تذيب شواهق الأعلام

والمثل الأعلى مهما نأت به الطبائع ، وابتعدت به الحياة حتى يصبح أبعد ما يكون عن مطمع النفوس ، وأشواق القلوب فإن الإنسان، سيلتقى به مع مرور الوقت ، والعمل على السمو والرقى الإنسانيين من العوامل المثالية ، والروحية التى تساعد على تحقيق اللقاء بين الإنسان ومثله :

يكفيك منى أننى لك مخلص مهما تعالى فى الحياة مقامى
مهما بعدت عن العيون فإن لى عهداً أحققه على الأعوام

أو حينما يصبح الاختيار ، والارتباط قدراً ، ومصيرا وتحقيقاً لوحدة المحبوب ورفضا للتشريك ، أو التعدد الذى يناقض العذرية والمثالية ، وربما كان الإيمان بالله واحداً لا شريك له ، ووحدة المعبود ينبوعان نقيان يستقى منهما الإنسان توحيد مثله وهدفه ... ومحبوبه والارتقاء بالعلاقة الإنسانية إلى مستوى محاكاة العلاقة بين الإنسان وإلهه المعبود الواحد الأحد المقصود وحده بالعبادة ، ليتحقق حينئذ التقارب بين عالم المادة ، وعالم الروح كخطوة أولى على درب الامتزاج الكامل وميلاد الروح العظيم ، وذلك بفضل انتصار الإنسان على مادياته وتغليب روحانياته .

يقول الشاعر بعد أن التقى بمحبوبه ، فأحبه ولم يشرك فى حبه أحدا :

بحثت فلم يجـد قلبي سـواها فأقبل طالبـاً منها هواهـا
فلما آنست منى خضـوعا أصـابتنى بسهم من نواهـا

ومحبوبه فوق مستوى العالم المـادى ، لأنه ينبع من الصفاء، والنقاء وصورة مثلى للاكتمال والكمال :

لمـاك خمور العشق وهى منيعة وريقك يشفى مغـرماً ومتيما
هواك سماء الحب وهى رفيعة وكيف لمن فى الأرض أن يطلب السما
وشمسك شمس الحسن وهى بديعة لهذا فؤادى بات ولهان مغرماً
وقلبك مثل الصخر لا يرتجى به حنان ، فما أرضاى لو كنت حازما

« فلماها خمر العشاق » لكنه فوق مستوى الحصول عليه ، لأنه إحساس ينمو بمرور المعـاناة ، والانفعال لصادق بالجمال وريقها يشفى من يعانى آلام الاغتراب ، والوجد ، والأحزان لأنه يستشعر حينئذ الطهارة، والسمو ، والارتقاء بواسطة حالات لمعاناة التى يمر بها . . ومما تؤكده أن السعادة الحقيقية هى ما نحققه بعد مراحل من الترقى النفسى المستمر والتطهر الذى يتم عن طريق التربية الروحية الدائمة ، ومن هنا يكون الشفاء ، فالروح الذى يستشعر الاغتراب والاضطراب هو روح مريض، وشفاؤه ، فى سعادته التى تحققت بطريق المعاناة ،والتربية ، والصوفية، والمكابدة الروحية الحقيقية .

والاستفهام فى الشطر الثانى يكشف عن الاستبعاد بل الاستحالة التى يمكن تصور التقاء النور والظلام ، والأرض والسماء والإنسان بعناصره الأرضية والكائنات الأثيرية والسماوية ذوات الشفافية دون أن يكون هناك طريق للمعاناة ، وتواصل الترقى ، والسمو من جانب الإنسان .

وأخيراً فإن التشبيه الداخلى بين الصخر ، والقلب فى الإحساس والعطـاء ، والصموت إنما هو تحقيق للإعجاز البشرى حينما يصبح

الإنسان برغم بشريته ، وقوى السلب والشر لديه قادراً على منح الوجود أجمل المعانى وأسمى الأفكار ، وأنقى الفضائل لكن فى إطار من تصور وقوع الشر بسهولة وإرادة وتحقق الخير بمسئولية ومعاناة .

والشاعر لا يسلم بإمكانية خضوع المحبوب ؛ وقرب نواله ، لأن المحبوب صورة تمتزج فيها الطبيعة بصفائها ومثاليتها ، والوجود لإنسانى بتساميه ، ومحاولاته الوجودية فى الحلول فى الطبيعة لتتحقق صورة الوجود الواحد ، أو تتحدد الوحدة الوجودية ويظل هكذا الشاعر — وهو ابن المستقبل الذى يحمل اللهفة للقائه — يتغنى بالجمال الإنسانى من خلال تغنيه بالطبيعة ، أو يحلم بالجمال الخالد من خلال إندماجه فى الكون معا — الإنسان والطبيعة — ونداؤه ربما كان رمزا للحضور والاستشراف واستعادة الزمن الضائع والجمال المغترب :

ناديت لما ذوى جسمى من السهر ولاح نور على الأغصان فى لشجر
أ كوكب الصبح يبدى نور طلعته أم تلك محبوبتى جاءت على قدر

« فالنداء » دليل اللهفة ، ووسيلة لاستحضار أجمل ما تختزنه النفس فيه استشراف المستقبل . « وكوكب الصبح » ميلاد جديد واللقاء بالمحبوبة ميلاد إنسانى جديد أكثر جـــدة وأفضل وأجمل تطورا فى طريق التسامى والارتقاء والشاعر كثيراً ما يؤكد على تلك المعاناة فى لقاء المحبوب :

بك كل ما يصبو إليك الناظر وعليك حراس العيون تحاذر
لا تعذليني فى هواك فإنمـا أنا فى هواك مجاذف ومخاطر
أنا مخلص ، أنا صادق ، أنا حافظ للعهد ، ممها تهجريى صابر

وهكذا يحاول الشاعر من خلال أبياته ، وشعره حول المحبوب الذى يتحمل المشاق ، والمصاعب فى سبيل الوصول إليه راسما صورة مثلى للوجود

المستهدف من رحلة الإنسان على وجه الأرض ، مصوراً هذا الوجود فى صورة صراع دائم بين الإنسان والطبيعة فى ذلك التوتر المستمر بين إرادة المثل الأعلى والتعالى على نوازع البشرية وبين ما تفرضه طبيعة بشريتنا من عجز وألم ، وفناء ، وخوف ومهما يكن فشعر شاعرنا — وغم احتوائه على ذخيرة وفيرة من ألفاظ العشق ، والحب الممزوجة بالألم والمعاناة — فإنه يحفل بشفافية إنسانية وولع صوفى بالكمال الإنسانى ، والجمال الفطرى ، استقاها من طبيعته وعناصر شخصيته ، وبيئته التى حفلت بكثير من مظاهر الخير ، والحق وذلك بعد أن أسبغ عليها حلة قشيبة من التعبيرات الجمالية الفذة التى تستوقف القارىء المتذوق لمواطن الجمال اللغوى والنفسى والروحى ، والإنسان الحساس الذى تتملكه مثل هذه التعبيرات العفوية ذات الشفافية ، والمحتوى الروحى وتجعله يقف مشدوها ، ومشدوداً بمعن النظر بفكره ، وقلبه وروحه فيما تحمله من شحنة شعورية عميقة يطرب لها الوجدان ، فليست آلام شاعرنا ، ومعاناته مجرد شجو منظوم ، وعبرات مترقرقة ، ولكنها — فوق هذا — تمثل آفاقا إنسانية رحبة استطاع أن يحلق فيها ويشدنا إليها وإليه ، ويجعلنا معه نحس بإحساسه ، ونشرب من منابعه ، فهو حين يعكس لنا مرآة ذاته فى حبه ، وأشواقه ، وحنينه إلى مثل الجمال ، وقيم الوجود إنما يعكس الروح الإنسانى ، والنفس البشرية عامة فى حالة من الحالات التى تنتاب الوجود ، وتستبد بالإنسان المتطلع نحو الكمال الإنسانى والمثل الأعلى .

فتلاعبه بالألفاظ ليس مرده ولعها ، ويتوليداتها ، وإنما محاولة ، وبحث فى عالم اللغة عن شكل يتفق وعالم النفس المحبة ، العاشقة ، وهى تكابد الحرمان والفراق .

والشعر حقيقة من الفنون القولية الحميمة ، فهو قمة الإحساس بالكلمة ، وإشراقة التفكير ، وينبوع العواطف هو الشكل الذى تتدفق منه المعانى الإنسانية ، وقد استطاع الشاعر بقوة الشعر وقيمته الفنية أن يوظفه فى خدمة

الإحساس بالجمال الروحى وأن يجعل هذا الإحساس المرهف فى خدمة الحب العفيف وصور العذرية الإنسانية ، وأن يكشف بفضل اللغة على مواطن كل تلك الأحاسيس ... ومن هنا كان الشعراء بحق الجسور الجمالية لوصل الإنسان بعوالم اللغة ، والكون ، والإنسانية بل « أن الشعراء هم شراح الإلهام الإلهى ، وهو المراثى لتلك الظلال الكثيفة التى يشعها المستقبل على الحاضر ، وهم الكلمات التى تفصح عن شىء لانفهمه ، والأبواق التى تعزف لمعركة دون أن تشعر بما تبعثه ، والمحرك الذى يحرك ولا يتحرك ، والشعراء هم مشرعو العالم ، وإن لم يعترف العالم بهم » . فشاعرنا يوظف فنه ولغته لتنمية الاحساس لدى القارىء بالجمال الإنسانى حينما تكون العفة والعذرية والطهارة والبراءة والأصالة مقومات هذا الجمال ، ولا يقدر على إبرازه غير الشعراء ، وطريقهم إلى سبيل ذلك الالتفاف حول الينابيع الأصيلة ، والنفاذ عبر الوجود المادى إلى العالم الروحى ، واستلهام عالم الطبيعة ، والطيور والأزهار أخص خصائصها الفطرية تلبية للحاجة الإنسانية الملحة إلى التسامى والتقدم . ومن المكابدة ، والحرمان ، والصبر ومعاناة الشعراء تتفتح مغاليق النفس ، وتتدفق جداول الحياة الإنسانية الثرة بالخير والرؤى الطيبة ، ومن هنا يكون الشعراء المحبون أكثر تأثيرا فى عالم العواطف ، وأقدر على التعبير عنها ، والشاعر من أهم مقومات مملكة الحب لأنه يحتمل لظاها ، ويحترق بنارها صابرا ، وشاعرا :

فقولا إذا أهلا وسهلا بعاشق جديد يسرى همنا ويصبر
يبوح لنا بالوجد من بعد عذله وبالدمع يملى عبرة ويسطر
ويشكو لنا مما أصاب فؤاده بمعنى جديد فى ربى الشعر يزهر
نعم هيتا لى فى النسيب آرائكا ومتكأ فيه أئن وأزفر

فلا الشعر مجد لى إذا كنت ناظما ولا الدمع كاف للذى أنا أنشر (١)

والشاعر الذى نقل إلينا أحاسيس الطير ، واعتصر قلبه ووجدانه شعراً يتوج به مملكة النسيب ، ولهفات المحبين ، هو نفسه أحد الشعراء الموكلين بالقيم السامية يعلى منها ، ويشيد بها ولاء للإنسانية ووفاء للحبيب ، وحنيناً مذيباً إلى عالم الفضائل ، ومواطن الجمال وتحية خاشعة دامعة لمواطن اللقاء وبقايا الذكريات ، وأطلال المرابع ، وملاعب الطفولة ، وأيام الشباب ، رافعا بين يدى المحبوب جراحاته ، وعذاباته ، واضطراب حال المحبين فلا القرب يسعد ولا البعد والفراق يحتمل :

هذى جروحى من دام ومتدمل ما أضيع المرء بين اليأس والأمل
أصبحت حيران لا قربى يعللنى ولا فراقى على وجدى بمحتمل
وهاجنى منك أن أرمى بلاسبب بخادع ماكر يغويك بالحيل
فاستغفر الله من ذنبى وما غرست يداك فى مهجتى من أروع العلل (٢)

أو قوله راضياً بحبه قانعاً بآلامه وآماله ، رابطاً بين سعادة القلوب وهناء النفوس مؤكداً على أن العيد الحقيقى هو فى لقاء المحبين كما أن العيد الحقيقى للنفس البشرية : هو فى الحب الذى يبذله الإنسان ، ويعيش به ، ويقتات من ثماره ، ويدفع به فى شرايين الحياة لأن الحب أجمل ما ينطوى عليه القلب الإنسانى وبالحب تتحقق سعادة الإنسان على الأرض .

قالوا غداً تبدأ الأفراح والعيد فقلت حقاً فأيام الرضا عيد
ما العيد يطربنى ألا يحبك لى ولا بغيرك تشجينى الأناشيد

---

(١) من قصيدة « أعينا على قلبى » ، ص ٧٣ .
(٢) من قصيدة « هذى جروحى » ، ص ٥٦ .

أو هو يعان سعادة قلبه بمن يحب :

اهنأ فؤادى بصفو عاطر آت وانشر نشيد الهنا من بعد آهاتى

اهنأ فؤادى بمن باتت تبادلنى بعد النفور وطول الهجر قبلاتى

الامتزاج بالطبيعة وصور الكون الشفيقة :

* * *

عشق شاعرنا الطبيعة الريفية ، وهام بفتاتها حبا لأنهما تمثلان عنده الدنيا بكل ما تموج به ، وتتحرك ، يحس بهما تهتزان فى فؤاده وتترنمان فيتغنى بهما شعرا ، والطبيعة عنده رسوله إلى المرأة ، فكلتاهما الصورة المثلى ، يعشق الأولى لأنها بنبوع الحياة ، وملتقى المثل ، ويحب الثانية لأنها إدارة الوجود ، وسر بقاء الإنسان قابضاً على مصير الحياة .

وهو حينما يتساءل عن سر هدير الغدير ، وسيره الرفيق وبثه الحياة فى كل مكان إنما يحاول بهذا التساؤل تشكيل صور جمالية وحياتية وتاريخية للغدير ليبدأ معه ، وبه رحلة الذكريات ، واستعادة الماضى الممتع ، وترسم خطى المستقبل الذى يشرق ويزهر بين أحضان الحبيب الذى مازال يبخل باللقاء ، ويتعالى فى كبرياء :

حتام تهدر يا غدير ؟ وإلام فى رفق تسير ؟

تمشى هنا وهناك تر وى كل منظوم نضير

وحويت آيات الجما ل وزادك البدر المنير

منك الحياة بأسرها سبحان خالقك القدير

والطبيعة صديق للفنان ، يعيش معها فى صوفية فنية ، وروحية يستلهمها ويرافقها ، ويجدد معها شباب الزمن ، كما أنه يستأمنها على أسراره ،

ويسقط عليها آماله وأحلامه ، وينكفىء عليها فتجود عليه بأجمل ما يفيض به وجدانه ، ويمتزج بها فتنثال عليه صور التسامى ، وتتداعى من مخيلته كل الأفكار الإنسانية التى تحوط الكون بالحب ، والتآلف ، والانسجام ، والتوازن الصاعد بالطبيعة ، وشاعرها إلى الامتزاج الكامل ، والتكامل النامى ، وشاعرنا يستعيد بواسطة الغدير لذته الفائتة ، وليست كلذة امرىء القيس ، وهو يستنطق أطلاله بل لذة الوجدان ، والوصل والعناق الروحى ، والصفاء بين الإنسان ونفسه ، واللقاء بالموجودات فى حب ، وتفاهم ، ثم تصور المستقبل على غرار الماضى ليتحول الزمن إلى ينبوع للسعادة الإنسانية على وجه الأرض وهنا تتحقق رسالة الشاعر وكما يجود بها خيال شاعرنا يستمر قائلا :

قد هجت مكنون الهوى ... وفتكت بالقلب الكسير
فبعثت صوتى بالحنين ... ن ورجع الصوت الخرير
ووقفت أذكر ما مضى ... وأجود بالدمع الغزير
وقد استعدت الذكريا ... ت البيض فى العهد القرير
عهد البشاشة والنضا ... رة والهوى العذب الطهور
قل لى بحق مودتى ... ماذا يكون لى المصير ؟
بك استجير من النوى ... فاسمع نداء المستجير
وإذا مررت بحيها ... فاذكر لها همى الكثير
هم أبعدوا عنها خيا ... لى ، والنوى صعب مرير
ادعو عليهم مابكى ... فى الليل مكلوم حسير (١)

---

(١) من قصيدة « يا غدير » ، ص ٦٤ – ٦٣ .

والاعتراف يتنافر مع عذرية الحب ، ولذلك فإن الشاعر حريص على حبه يودعه مكانا عزيزا فى قلبه ، ومكنون أسراره :

مالى إذا ذكـر اسمهـا قلـبى يكاد لها يطـير
وأكاد أنطـق بالـذى كـم ظل فى طى الضمير
منى عليـك تحيـة ما غردت حولى الطيور

والامتزاج بالطبيعة ، والهيام بصور الكون ينبوع الشعر العذرى والرومانسى ، لأن هذا الإمتزاج يمنح الشاعر رؤيا شعرية قائمة على حياة أخلاقية يركن اليها الشاعر ليستمد منها الوحى والإلهام ، ويرى بين ربوعها الجمال ، والسعادة ، والبهجة ويتيقظ حسه الفنى ، وينقى ضميره ، وفؤاده ، وفى تأمله الدائم للطبيعة ، والكون يدرك قلبه قيمة إيجاد علاقة وثيقة بين الإنسانية ومجتمع الطبيعة ، بل إن الملاحظة الدقيقة للطبيعة الريفية والحياة الإنسانية الأصيلة من شأنها أن تشق طريقا واضحة نحو السمو الانسانى ، ويتيح النفاذ فى صميم الحياة ، والكون والإنسان ، وتصوير ما يعتمل بداخل تلك الحيوات تصويرا يشف عن القيم الأصيلة للموجود ا ، وذلك فى صدق، ووضوح وقوة مستمدة من قوة العلاقة بين الشاعر والطبيعة .

فطن إلى هذا شاعرنا ، وإلى حقيقة قد تغيب عن كثير من الفنانين والشعراء وهى أن الشاعر يجب عليه ، وينبغى أن يتزود بقوة روحية عميقة تعصمه ، وتحصنه ، وتهيء لخياله ، وفنه التزود من عالم الروح ، والطهارة والنقاء، والتسامى بشعره إلى حيث المثل الرفيعة ، وتيسر له التحليق فى القنن الشامخة ، وتتخذ له موطنا فى القمم السامقة ، وتساعده على سبر أغوار

النفس ، ولهذا يصدر شعره عن ينبوع من الصفاء والشفافية تتلاقى عند شطآنه النفوس العطشى ، والقلوب الصادية والعقول الحائرة ، والحيارى من بنى البشر يرتوون، ويشعرون بألفة مع الحياة ، وتوازن مع الوجود ، وبهذا يكون الشاعر أحد مقومات الكون وسرا من أسراره وقوة روحية من قوى الخلق ، والابداع ، والابتكار نحو الكمال والنزوع الانسانى تجاه الخير المطلق والحق الكامل ،والعدل الشامل والتبشير بالجيل الإنسانى القادم .

فالشعراء - بحق - هم الذين يغذون جنين الكمال فى الانسان ويوقظون أحلام السعادة فيه ، ويقربون المثل الأعلى من النفس ، ويفتحون للإنسانية من النوافذ ، والأبواب ما تطل به على الخلود ، والأبدية ، والروحانية العذبة ، والشفافية الأخاذة يساعدهم فى هذا امتزاجهم الكامل بالطبيعة ، وذوبانهم فى الكون والوجود . من هنا كان شاعرنا ذا حس فنى ، وروحى ، وهو يتأمل الطبيعة ويفسر ظواهرها بما يتفق ورسالة الشعر ، ويتجاوب وطبيعة الاتجاه العذرى لشعره : وحبه العفيف.

فالسحاب الممطر دموع سكبتها عيون والهة على جسم يذوب من حر الهيام ، والأشواق المبرحة ، ثم اختلطت بأشواق الرغبة فتبخرت وتصاعدت فبدت غماما، ثم يفسر سوادها بأنه رمز للمدامع فى الظلام ، يشارك المحبين أحزانهم :

ماهـــذه الأمطـــار إلا من دمـــوع ذوى الـــغرام
سالـــت على جســـم يكـــا ديـــذوب من حـــر الهيـــام
فتبخـــرت وتصـــاعدت وبدت فقـــلت هى الغمـــام
أمـــا الســـواد فإنـــه رمـــ المـــدامع فى الظـــلام

حفظتـــه فى تكوينهـــا سحباً وحاكتـــه فـــدام
حتى إذا ألفـــت حـــزيـ ـنا بائســـا أو مستهـــام
شقـــت عليـــه ثيابهـــا وتـــدفقت تشفى السقام
كل يـــنوح ولا يبـــو ح وقـــد أصابتـــه السهام
فتراه يبسم والفـــؤا د يذوب من هول الغرام (١)

فالشاعر وهو يصور دموع المحبين سحاباً ممطرا فبخارا صاعداً إنما يتمثل الإحساس بالذات العاشقة من خلال الطبيعة ، فهو الذى يصور الدموع سحاباً ممطراً ليخلع عليها روحه الحزينة ، وأشواقه اليائسة ، لأنه بهذا يقيم الجسور بين نواحى الكون ، وأبعاد الوجود الإنسانى ، ويعطى للظاهرة الطبيعية تفسيرا إنسانياً ، والانفعال الإنسانى مشاركة من الطبيعة ، ومن ثم يتحقق التفكير المتبادل بين الإنسان والوجود إذ بقوة الروح المحبة العطشى إلى التآلف ، والتعاطف ، والإحساس الكامل بما حولها ، والتفاهم الدائم مع من يحيط بها ويستطيع الشاعر العذرى أن يلتقى مع عناصر الطبيعة فى تجارب صادقة موحدة ، وأن يخلع عليها من روحه ، وإحساسه ، ويفيض عليها من خياله بحيث يجعلها قدرة فاعلة ومتجاوبة ، ويستطيع أن يجد فى عوالمها ما يأنس إليه ويبوح له ، ويشركه انفعالات حبه ،وهو يختلف اختلافاً دقيقاً عن الشاعر الرومانسى فى أن الأخير يجعلنا نقف أمام قدرة شعرية تنقل مشاهد الطبيعة إلى عالم الفن بقوة الإحساس ، والتصوير الفنى ، وعلى هذ فإن مهمة الشاعر العذرى — عند شاعرنا — أن يؤلف من شعره وحدة اجتماعية مع الطبيعة يتبادلان المشاعر والأحاسيس ، وذلك بعد أن كشف « العذرى عن »

---

(١) قصيدة من « فى السحاب » ، ص ٩٣ .

نواحى التبادل بينهما ،وجسده فى شعره الذى هو فى الحقيقة تعبير الإنسان والطبيعة معا .

فالأمطار قد جعلها الشاعر دموعاً ، وبكاء ، والسحب السوداء حداد امرأة ثكلى شقت ثيابها حزناً وألماً ، والشاعر قد جعل الحزن والألم أداة توصيل العواطف بين الإنسان ، والطبيعة ، لأنه يرى كما يرى الشعراء العذريون والرومانسيون أن الألم ، والحزن ينبوعا الحياة و « أن العنصر الأول الذى يكون الحياة هو الألم ، وأن أشهى الأغانى التى تفعل أفاعيلها فى نفوسنا هى كما يقول الشاعر « شلى »:

ما استمرت إلا وهى مكتئبة حزينة وما السرور إلا عارض فى هذه الحياة (١) .

ولهذا فحينما نفكر فى الطبيعة وتفكر فينا يكون الحزن ، والألم معابر ، وملتقى لأننا نقصد إلى توحيد كونى ، ووحدة وجودية تنبع من إحساس واحد يكتنف الكون كله بحيث يشف الوجود عن حياة واحدة فى لغتها ، وأحاسيسها ، وانفعالاتها ، ويصبح لكل ما يقع عليه بصر الإنسان له معنى يستمد تفسيره من الإحساس المبهم الذى نماه الشعراء ، وغذوه بأخيلتهم ، وكان صدى لكوامن نفوسهم باعتبارهم أنبياء فى هذا الوجود ، لأن الشاعر « هو نبى الإنسانية » الذى يترجم آمالها وآلامها عن حقائقها وعن أحلامها وهو الذى يكشف الجمال أمام أعينها إذا عز الجمال . . . وهو الذى يسعى إلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة بعد هدم الفاسد من النظم والأوضاع . . . والشاعر يسهم فى الأزل ، الواحد بحد المحدود

---

(١) صالح جودت : محمد عبد المعطى الهمشرى ، ص ١٤١ .

بقدر ما يتصل بشعوره ، أما الزمان والمكان والعدد فلا يمت إليها بصلة فكرية »(١) وعندما يُسأل شاعرنا عن بعض النجم يسهر ، ويرافق الليل دائماً :

ما بال بعض النجم يسـ ـهر فى السماء على اطراد
أتراه قاسمنى الهمو م فبات مثلى فى سهاد
أم مغرم بعدت أحبـ ـته فسهده البعاد . . ؟

فيجيب مؤكداً على وحدة الأحاسيس الوجودية قائلا :

ما النجم إلا دمعة من عاشق حرم الرقاد
حيرى ترقرق فى العيو ن فلا تسيل ولا تعاد
أفلا ترى نجم السما يحيطه رمز الحداد
فيه معان للحزي ن وكل عان فى العباد

ثم يأخذ فى تقديم تفسيرات متنوعة لبعض النجم الحائر فى السماء :

أو قل فهذى درة فى صدر محبوب الفؤاد
أو قل فعين الحق تبـ ـصر كل شئ فى البلاد
وتراقب الإنسان من أيام قابيل وعاد (٢)

فالشاعر قد اختار الأحزان موضوعا للوجد الكونى ، ولم يشأ أن يجعل التعبير أكثر من كلمات مجردة لكنها مشحونة بقوة روحية غريبة تجعله قريباً من الحياة ،معايشاً لنماذجها الزاخرة برهف الحس ، وشبوب العاطفة والانفعال بالطبيعة فى كل مظاهرها واستيحائها ،

---

(١) وليم هازلت : مهمة الناقد ، ص ٧٩ .
(٢) من قصيدة « النجم » ، ص ٩٦ .

وبذلك استطاع أن يحقق الذات فى الطبيعة ، ويسمو بها إلى عالم الاحساس والادراك ، ومن هنا كان دور الشعراء « العذريين » و « الرومانسيين وهو رفع شأن الطبيعة ، وإعلاء قدرها والسمو بواقعها إلى عالم الاحساس والمشاركة ، والتجاوب ، والتفكير المتبادل مع العالم الإنسانى كأساس لوحدة وجودية شاملة تذعن لإله واحد ؛ وتستهدف غاية روحية تمتزج بالمطلق .

فالشعر برومانسيته ، وعذريته يمنحنا أفكاراً عن الطبيعة ، والكون تزيد على تلك التى منحنا إياها العقل ، والتجربة ، وهذه ضمن وظائف الشعر و « إليوت » يجسد هذا بقوله : إذا ما سألنى سائل أى نوع من أنواع المتعة الذى يثيره الشعر أجبت : إنه الشعر « والسبب ببساطة هو أن أى إجابة أخرى ستقودنا بعيدا فى مجال الجماليات ، وفى موضوع طبيعة الفن ذاته .

وأظن أن من المتفق عليه أن لدى أى شاعر مجيد ، سواء أكان شاعرا عظيما أم لم يكن شيئاً آخر بجانب المتعة يهبنا إياه إذ لو اقتصر الأمر على المتعة لما كانت فى حد ذاتها من أرقى الأنواع ، وللشعر دائماً هدف أبعد مدى من الهدف الخاص أو المعين الذى قد يرمى إليه أحياناً ، والذى اتضح من الأمثلة التى سقتها ، هو أن الشعر يحاول إيصال تجربة جديدة ما ، أو إلقاء ضوء جديد على شىء مألوف ، أو التعبير عن شىء ما مررنا به ، ولم نستطع أن نضعه فى كلمات ، مما من شأنه أن يغنى وعينا ، ويرهف حساسيتنا »(١) . ونحن لا نلتقى مع هذا المعنى الخاص الذى يجلبه الشعر لنا إلا فى مصاحبته للطبيعة ، ومرافقته للكون ، وتأمله فى النفس ، فالشعراء ، وفى مقدمتهم العذريون يتخذون من الطبيعة موطنا ، ومسرحاً حتى يكونوا فى مأمن عن الرقباء

---

(١) ت . س اليوت : مقالات فى النقد الأدبى ترجمة الدكتورة لطيفة الزيات ، ص ٤٦ .

والعـــواذل ، ويبكون كأحر ما يكون البكاء : ويعترفون بمآسيهم ، وأحزانهم ويبوحون بعواطفهم ، ويبدو الشاعر الغزل متهالكاً متهافتاً ، والناس من حوله يسخرون ، لكنه فى رحاب الطبيعة صاحب وجد ، وصدر يجيش بأنبل العواطف ، وأصدقها فيتغنى بحبه ، ويهيم بمحبوبه ، ويقترب فى شوق ، ولهفة من معشوقه ، وحينئذ يمنحنا نحن البشر طاقة تقوى نبضنا بالحياة وتغرى أرواحنا بالتسامى ، وتطلق عواطفنا من عقالها ، وتثرى تجاربنا بالكون ، وتوقفنا على أسرار فنكتشف حاجتنا إلى الطبيعة وانجذابها إلينا . . وهكذا تنمو المعانى النابتة على درب التواصل بين الشعر والطبيعة ، وتعظم الأفكار البسيطة . وشاعرنا حينما استوحى الطبيعة وانفعل بها ، ومعها ، وامتزج فى مناظرها وعناصرها إنما كان يود أن يصنع للحب الإنسانى عشاً دفيئاً من الطبيعة ليكون هذا العش موطن الجنين الذى يحمل سمات الوحدة الوجودية ، والكيان الوحى القـــادم عبر الإرهاصات الحـــالمة ، وقد اتخذ شاعرنا « القمر » صديقه ورفيقه فى الريف ، وجليسه على شاطئ النهر أقول اتخذه « مراسلا جوياً » إن صح هذا التعبير ليرسل إليه بمناجاته وآهاته ، وأحلامه ، وذلك لمـــا للقمر من مكانة لدى مملكة الكون حيث الدروب الأرضية ، والزمنية يضيؤها ويغمرها فيؤنس الوحشة وينير ليل السارى ، وفى ليالى الشوق يرتمى ضوء القمر فيغمر ، ويبهج ، ويقرب ، وفى ظله يتعاطف الندى ، ويتحاضن الصدى وتسهر العيون ، وقد هرب عنها الكرى مشرعة شاخصة إلى « زورق الفضة » على صفحة السماء ترقب انحداره إلى حيث طلوع الفجر : وهو أيضاً — رقرق كثير من الناس فأشعته تغسل شوائب القلوب ، والنفوس ، وتغمر الذات بالطمأنينة ، والأمن والأمان ، والحب ، والوئام ، ويستقبل النظرات المتجهة إليه ، وكلها نظـــرات ألم المحبين ، والسارين فى دروب الوحدة ونظرات الذين فقدوا الهجوع ، وقرح جفونهم الفقدان ، والرحيل ، والغربة والاغتراب ٥

يتحسس الشاعر كل تلك المعانى ، وهو يخالس النظر إلى القمر رفيقه فى ليالى الريف بين القصر ، والنهر ، فيسأله عن حاله ، وهل ما يزال يطل على الأكوان بجماله الباهر ، ويرسل فى الأجـواء بضوئه الفضى ، ويخالس النظـر خلال شراعات نوافذ القصور حيث الجمال البشرى المترف ، والأنوثة الناضجة ،والقلوب الصادية والأجسام العطشى ، ويستعيد معه أيام السعادة الفائتة ، واللذة المـاضية ، ويتأمل معه ما يخبئ الزمن القادم ، ويسقط عليه من ذاته لتتحقق وحدة المشاعر ، والأحاسيس ، والانفعالات ، ويخاطبه قائلا:

يا بدر ويحك هل تطل على الورى ... بجمالك المعهـود غير مبال
والناس من ذل الحياة وهمهـا ... أيامهم قـد بدلت بليـال
يا بدر قـد ذكرتنى بمواقف ... ولت وعهد لى قديم بـال
يا بـدركم شاركتنى فى لـذة ... وبسطت نورك فوق عرش خيالى
وكشفت عن وجه جميل مشرق ... ومزجت حسنا فائقا بدلال

ثم يأخذ فى تشكيل الوجود الـكونى ، والتعاطف بين الإنسان والطبيعة :

قل لى : أدمع الليل ؟ أم هى دمعـة
أرسلتها ؟ أم هـل رثيت لحالى ؟
يا بـدر لا تطلـع بحق مـودتى
إلا على أمـل من الآمـال

ففى البيت الأول حيث النداء والاستفهام تكمن الرغبة فى استمرار تجميل حياة البشر ، وإنارتها بروح الوجود ، والجمع بين النـداء والاستفهام هو بلورة نفسية ، وشفافية إنسانية تفيض من قلب مخزون ،

وشاعر متوهج العاطفة يأمل فى أن تتبدد معالم الظلمة فى داخل النفس وخارجها واستمرار طعم الحياة ، والتواصل بين المحبين ، والتأكيد على أن الزمن بدون حب هو زمن خارج عن إطار الوجود الحقيقى للإنسان ، لأن الزمن الكامل يكون الحب من أهم مقوماته ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى لديه القدرة على الحب ، والكره ، فلا وجـــود للإنسان بدون تلك العاطفة ، ولا يوجد فن كما لا توجد عاطفة إنسانية فـــذة بلا عاطفة قوية نفاذة والحب هو السبيل إلى تحقيق العبقرية ، وبالتـــالى تأكيد الوجود الإنسانى ، وما تاريخ البشرية إلا كفاح مستمر من أجل الحصول على عبقرية فنية فذة تتغنى بالحب الإنسانى ، وتصوغ حبها شعراً يوقظ كل الموجودات لتنجذب إلى الفاعلية الإنسانية ، ورسالتها على وجه الأرض وهنا يتحقق اكتمال الموجودات ، وتقترب الحياة من معناها ، ويصبح لكل شئ معنى ، ودلالة ، والشاعر قادر على إعطاء هذه الأشياء تفسيراً روحياً ، والناس بدون الشعر والفنان والطبيعة فى ظلام دامس ، وجهالة عمياء ، وشقاء ، وأحزان وآلام وبالشاعر ، والطبيعة تتحول الليالى السوداء بظلامها الدامس إلى ليالٍ قمراء ينطرح تحت ضيائها الشاردون فى تأمل عميق ويظل الاحتفاء بموكب القمر فى لياليه القمراء احتفاء مستمراً بالآمال والأحلام تبدد ظلمة النفوس ، وقسوة القلوب ، وبهما يفيض الخير ويعم العدل ويحق الحق ، وترتفع راية الإنسان على مفترق الطريق الكونى . وهل هناك أقوى ، وأجمل من ارتعاشة القلب عنـــدما يحب ويجد هذا الحب على لسان شاعر ، وبين أحضان الطبيعة ، وهذا سر قول الشاعر :

والناس من ذل الحياة وهمها أيامهم قـــد بدلت بليال

إلى أن يقول :

يا بدر مالى غير وجهك سلوة فاسمع لقولى واستجب لسؤالى

و إذا كان حظه مع القمر المؤانسة ، والمشاركة ، فإن حظه ـ أيضاً ـ مع النهر ، و« الغدير » و« النقاء » و « النضارة » و « البشاشة » و « الصفو » حيث يسترجع معها لحظات العشق الصادقة ويسترد له وللناس من الماضى السحيق حيث العمق الزمنى والمكانى ، والنفسى والطفولى ، والفطرى ، عهد النقاء ، والنضارة ، والصفاء . وهو يرى أن الغدير رمز للماء والطين اللذين منهما ، وبهما بدأت رحلة الحياة ، وولدت أسراب الوجود فالبشرية بحاجة إلى ميلاد منجدد ، وإعادة الحب إلى عش هجره المحبوب أملاً أن يولد الماضى فى الحاضر ، وأن يجود المستقبل بأجمل ما يتمناه المحبون وصالا ، وعناقاً ، وذوبانا ، وفناء :

حتام تهدر ياغدير ؟ وإلام فى رفق تسير ؟
تمشى هنا وهناك تسر وى كل منظوم نضير ؟

إننى أمام هذا الشعر ، وغيره أحس أن الشاعر يريد أن يملأ الجو غناء وقصيدا ويريد أن يودعه حسنه ، وأساه وبثه شكواه ، ويسمعه أناته روية شجية حتى أصبح الجو معطراً بعبير شعره ، وشذا هواه :

فبإرادته العاشقة سما بعالم الحب حتى أصبح بعيد المنال ووصل به إلى مكان عال لا تستطيع قوى الأرض أن تصل إليه دون مجاهدة ، ومكابدة ، وصبر وأناة ، وما هذا العالم المثالى فى حقيقة أمره إلا صنيعة الشاعر ، وإرادة المحب وشهقة الصوفى فمن هؤلاء انداحت على الأرض بحور الخير ، والحق ، والجمال ومنهم انبثقت معالم الرحمة ، والفضيلة ، والإحسان ، وفى كيانهم نبتت أشجار الحكمة ، والفن ، ثم افترق

الإنسان عنهم واغترب ، وأخذ يلهث وراء مقدساته وعوالمه المثلى فكان الحب سبيله والطبيعة موطنه والأحزان سلمه ، والألم زاده ، والشاعر حاديه ، ويشيره ، وبالحب ، والشعر ، والألم الحزين سيلتقى فى رحاب الكون مع عالم المثل بعد أن يستقطره من رحلة عذاباته على الأرض ، ومعاناته مع المحبوب ، ومكابداته للوجد والشوق .

وهذا الحب الذى أعلنه « فؤادشهاب الدين » فى أشعاره وفى وجدانه الطموح إلى الوصال يرتد أيضاً إلى الوراء ويصبح تناغماً وتكاملا ، واستمراراً لحلقات شعرية ، وأصوات عربية أعلت من شأن الحب ، ومجدت القلب الإنسانى ، ولهذا كان غرامه بالشعر العربى وبالذات تراث العذريين ، وشاعرنا العذرى المعاصر قد ينجح فى بلورة أفكاره عن الحب ، ويتغنى فى صوره الشعرية بالعذرية والعفة لكنه لا ينجو ، ولا يستطيع الإفلات من التراث العذرى بل التراث الإنسانى المفعم بالأمل والألم والملىء بنبضات القلب ، وهيام الروح ، وتألق الوجدان ، والمعروف أن شاعرنا كان فى صباه شديد النهم إلى القراءة وأشعاره زاخرة بأصداء من روح التراث العربى .. العذرى ، وكل ما تلقاه من صدى الروح الهائم فى سماء الشعر العفيف تحول عنده إلى شىء نابض بالأشواق والحنين ، والصد ، والهجران والقلق الوجودى الذى ينتاب المحبين وهى مرحلة عميقة فى حياة شعر الشاعر حيث كان شعره هو نافذته الوحيدة التى يطل منها بوجدانه وعواطف قلبه على عالم المحبين فيشاركهم ويتسابق معهم إلى التسامى وإعلاء شأن القلب وكما كان الشعر هو الفن الوحيد الذى نبض قديماً بالروح ، وتغنى بالحب ولم يجد العربى فناً آخر يذيب فيه أشواقه ويطفئ فيه لهيب قلبه وحرائق

وجدانه سوى الشعر ،وهكذا شاعرنا قدنحت شعره من قلبهوأعماق نفسه ، وحينما علم بصديق له شاعر سيتوقف عن قول الشعر مدة عام رد عليه معاتباً :

ورجوعا إلى العهد القديم فإنما ... نحن الى العهد الحميد حميد
ترفق « هداك الله » وانظمه ثانيا ... تجا فيكما عامـا علىّ شـديد
وهب ظبية الوادى أتتك مع الدجى ... لتبدى لها شكوى الهوى وتعيد
أكنت تجيبها بغـير قصـائد ... كأجياد غـر فوقهن عقـود
سـواد بعينيها « بياض بقلبها » ... حداد يجفنيها أأنت حـديد (١)

وحينما شكى إليه شاعر محب صد محبوبه ، وتمنعه عليه ، ممـا جعله يصد عنه هو الآخر ، ويهجره ، ويغالى فى بعاده ،دعاه إلى معالجة الود مرة ثانية متوسلا بالشعر فن الحب الأول :

عاتبة يا صاح فى رفق وفى دعة ... واذكر له ما مضى إن كان يذكره
وانظم له باقة من زهر قـافية ... فقد يروق لمعنى أنت تبتكره
فإن تمادى فلا تهلك عليه أسى ... بل اكتم الجرح حتى تمحى أثره
فلست أول روض طار بلبله ... ولست أول برج خانه قمره (٢)

لقد أحب الكلمة حتى أصبح الشعر عنده هو الطاقة الإبداعية التى تمكن المحب من التعبير عن طاقته الروحية وتوجه بشريته المختزنة إلى التسامى الإنسانى عبر تجارب المكابدة والمعاناة .

فالشعر بهذا ، وفى صميمه لحن يعيد التوازن ، والانسجام للكون ، وللعالم كله ، ويكون صياغة جديدة للمصير الإنسانى ، وللأخلاقيات ؛ والشرائع وهذه القيمة للشعر هى التى جاهد الشعراء من أجل تحقيقها ، وما الحب وتياره العذرى سوى طريق يعبده الشعراء بشعرهم كى يصلوا بالمجتمع الإنسانى إلى مصيره الروحى المتسم بالسعادة، والنقاء والطهارة . كما لا يمكن أن توجد رؤية إنسانية وفنيـة واجتماعية وفكرية خاصة بالشعر يبدعها الشاعر بعيداً عن الرؤية التى تفرضها عواطف القلب الإنسانى ومشاعره تجاه الكون والحياة .

مرحلة الصد والحرمان :

تلك التى تجاوز فيها الشاعر خلال شعره فترة التفاؤل ، والصبوة ، والقرب إلى شعر المعاناة والمكابدة ، والحرمان ، ثم أثر هذا كله على الحس الفنى والوجدانية لدى الشاعر ، وبرغم ما يتبدى خلال الشعر من بكائيات ، وأشواق محمومة حتى أصبح الحب بسببها سوط عذاب يلهب الروح ، ويشف عن الكآبة ، والمآسى التى تنتاب الإنسان الشاعر لكنه — أيضاً — يؤكد على أن الحب يضىء ظلمة الوجود وعتمة الحياة ويشرق بالأمل ويثمر فى القلب العفة ، وفى الضمير المثل وروعة الالتزام ، ومن أجل ذلك سنجد فى شعر تلك المرحلة مفتاح شعر شاعرنا وشخصيته على الدوام ، لأن تلك الأشعار تتمثل فيها أبعاد أشعاره ،وما تنطوى عليه من عذوبة ، وعفة ، وإنسانية .. وكيف وفق الشاعر فى المزج بين شفافيته الفنية ، والوجدانية ، وبين نزوعه الروحى ، والإنسانى فى امتداد شعرى تبدت خلاله العاطفة الإنسانية كأصدق ما يكون انفعالها وظهورها .

وفى حياة الشعراء كثير من التجارب الكاملة التى لا تنسى ، والتى تسهم فى تكوين وتشكيل عملية الإبداع عندهم .. أما شاعرنا فقد عاش دوماً فى تجربة واحدة موصولة بقلبه ، ووجدانه ، فكان شعره نغماً موصولا ، وأنيناً صادراً عن قلب منزوف وبوحاً شعرياً متصلا بوجدان أفعمته الأيام بالأحزان النبيلة ، العامرة بكبرياء الحب وأشواق المحبين .

لكن لماذا يستمرىء شاعرنا الأحزان والآلام .. ؟ ولم يعيش معذباً كالمريض المشفى ، لا هو حى فيرجى ، ولا هو ميت فيستريح ويظل هكذا يستقطر سعادته من ألمه ، ولقاءه من الصد والهجران ، وفى سبيل عذريته وعفته ، وشفافية حسه ، ورقة مشاعره يستعذب الشقاء ويصبر عليه ؟ ويكابد من أجل إسعاد قلبه وتعليله بلقاء المحبوب والناس من حوله يسخرون من ذلك العاكف على الأطلال ومواطىء أقدام المحبوب ، وهو يتوسل متخذاً من القسم دليلا وبرهاناً غير مكتف بأدلة الواقع المترع بعذاباته وأحزانه .. ؟ :

قسماً بثغرك والعيــون السود ما خنت يوماً فى الوفاء عهود
لكن وأدت الحب بين جوانحى يا لوعــتى من ذلك المــوءود
وحملته فرداً وعشت معــذبا وقبلت كل تدلل وجمــود
وكتمت أشواقى سنين عديدة وصبرت صبر اليائس المنكود
حتى خشيت عليك عاقبة النوى أن تأخذينى فى ثياب صدود(١)

نعم .. إنه عذاب مفعم بالسعادة والنشوى وليس هناك تفسير لكل هذا سوى الإذعان ، والخضوع ، والذل فى حضرة المحبوب ، ثم الشعور بالسعادة والمتعة فى تعذيب النفس وإيلام الروح وهذه من سمات المحبين .

ثم لنقف قليلا أمام هذه الأبيات التى منحت هذا القلب المرهف للمحب حباً من أجل الحب ، ومن أجل تجميل الحياة ، فالحب شىء عظيم عند شاعرنا فيه توحيد وإعلاء وتسام .. منه تغترف الروح ، وله يعطى القلب أجمل المشاعر ، ويفيض الوجدان بأرق الكلمات وهو فى سبيل التأكيد على القيمة السامية للحب يبله فى ذوب أحزانه ، ويغرسه فى تربة آلامه ويظلله بظلال النفس الكابية ، والوجدان الشاحب ، والرجاء المفعم بالأمل ، والعيون المغمورة فى الأشواق ، ولعل هذا كله من أجل توطيد النفوس البشرية على الصفاء والنقاء ، والوصول بها – عبر درب المعاناة تلك – إلى مستوى يتكامل فيه الإنسان نفساً وقلباً وروحاً . فليس كالأحزان شىء يصقل المعدن الإنسانى وليس كالحب يستنبت الطهر والعفاف ، ومن هنا كان الحب العذرى العفيف توأم الأحزان ورفيق الآلام ، وبهما « الحب والحزن » يولد إنسان جديد ، وترهص مراحل الزمن بزمن جديد ، ومن بين ركام الأحزان تشرق بعض الآمال ، وذلك باستعادة زمن اللقاء ، والذى يصبح مثلا يجاهد الشاعر فى إعادته مرة ثانية ، ويحاول بأشواقه ، وحنينه أن يتصوره بواسطة حسه الفنى وأن يحس به خلال انفعالات النفس وهيام الروح ومكابدة القلب .

---

(١) قصيدة « القسم » ص ٥٠ من « الفؤاديات » .

وشاعرنا ، وهو يستعذب الماضى بلقاءاته وصبوته يستمرىء الحنين إلى العذاب والجفاء ، ويستحث خطى الزمان كى تحقق له مرة ثانية لقاء بالمحبوب وبين الصد ، والهجر ، والصبوة ، والحذوة والوصال يولد الحب مرات ، ومرات .. وهو فى كل مرة أكثر نقاءاً وصفاءاً حتى يتحقق السمو الكامل فى الحب :

وأخذت أرقب فرصة أحظى بها ... حتى حظيت بيومك المشهود
إن أنس لا أنسى غداة لقيتنى ... فى مأمن من عـاذل وحسود
وتنهدات منـك تتلو بعضهـا ... وتأوهات مثل دق العـود
وأجبتنى من بعد صمت قاتل ... بكليمة معسولـة بوعـود
قلبى وقلبك فى الغـرام تعاقدا ... كفى وكفك والسماء شهودى

ثم يعود إلى الإحساس بالأسى ، والصد ، والجفا :

ماذا جنيت فتفتكين بمهجتى ... وتقلبينى من أسى لجحـود
إنى سئمت من التباعد والجفـا ... ومرضت هلا للمريض تعودى(٢)

فالشاعر متيم بالحب نفسه ، وهذا الحب الذى يملأ كيان شاعرنا ليس واقعياً تحسمه قوانين الحياة ، وتحل مشكلاته عقلانية الوجود ، لكنه حب يهيم فى المحبوب ، ويقتات الأسى ، والأحزان ، ويرتوى من الجفا والهجران ومن ثم كان الحب صبوة روحية ، ولم يكن مجرد ميل حسى نحو أنثى . بل هو أعظم من ذلك بكثير لأن المحب والمحبوب كليهما يرى فى الحب المخلوق البشرى الأسمى ، ولذلك كانت تجربة الصد والهجر مرتقى هذا الحب إلى تحقيق السمو البشرى . والشاعر فى معجمه الشعرى الخاص به لا يلتفت إلى الحمأ اللغوى الذى تصطنعه الكلمة مفردة ، وإنما يختار السياق للكلمة لتتحقق الأسلوبية والنسق اللغوى النامى فى ظل التلازم بين الكلمة وسياقها وبيئتها ومعناها

(١) من قصيدة « قسما بتغرك » ص ٥١ .

ففى الشطر الثانى من البيت الأول حيث يقول : « ما خنت يوماً فى الغرام عهود » ، نجد كلمة « خنت » قد استنبتها الأساوبية المتكاملة مع كلمة « عهودى » وأيضاً الفعل مع الفاعل فى : « وأدت » يدل على الرغبة فى تنمية الصراع الحزين داخل القلب بغية الوصول إلى معاناة ومكابدة تؤكد مذهب الشاعر فى « الحب العفيف » .

ثم إن الفقدان الذى أشار إليه البيت :

فبحثت عن قلبى وكنت فقدته بين المواجع والليالى السود

يشير إلى الإصرار من جانب الشاعر على تنمية الإحساس بالاغتراب ، والفناء بحثاً عن الميعاد ، والخلود إذ ليس الفقدان مجرد إحساس بل إدراك وتمرد . إدراك للسأم القابع فى حياتنا ثم التمرد عليه تحقيقاً للتعارف الإنسانى ، والارتفاع به ، وتأكيده والوصول بهذا التعارف إلى مستوى من الولاء والوفاء يضمن للمعانى العظيمة الخلود والاستقرار ، وما أظن المجتمع الإنسانى بحاجة أشد من حاجته إلى استقرار قيمه وخلودها ، وبدون ذلك سيظل يعانى مرارة الصد والهجر والحرمان .

ومهما يكن من شىء فإن شاعرنا الذى تغنى بالحب ، وللحب قد تمثل معجمه الشعرى تمثلا قلبياً ، وإنسانياً ، وكما استهواه الحب استهوته كلمات الضنى ، والسهر ، والأسى ، وكل مشتقات الأحزان .. وهذه الأحزان تمتد بظلالها وتنبسط فى مساحات شاسعة من شعره وأحاسيسه ، لأنه بهذه الكلمات يعبر عن تجربة الحب ، ويرى فى اللغة — مفرداتها وأبنيتها اللغوية — معيناً ثراً لشتى العواطف العذرية التى لا تستطيع الصور الشعرية والخيال المتفوق على الواقع أن يؤدى أداءها ، فالحب العذرى بعفته وطهارته هو نوع من المعاناة والمكابدة ، ووسيلة التعبير عنه إيحائية ورمزية وليست تصريحية ، ثم إنه اعتراف روحى وبوح ، والطريق إلى هذا هو اللغة بمفرداتها المتصلة بعالم

الروح والضمير والوجدان . فالشاعر فى ميدان الغزل العفيف لا يشغل بالتصوير القائم على إنشاء علاقات خارجية لأنه مشغول بتنمية ذاته ووصلها بذات أخرى بما فى ذلك لغته التى تمثل جسور هذا الوصل ، وتؤدى بهما إلى وحدة الحب ، والعشق بحيث تصبح الأحاسيس واحدة والمشاعر المتدفقة تنبع وتصب فى كيان واحد ، واللغة هى أيضاً واحدة ، وبهذا التوحد اللغوى تتأكد وحدة المحبوب أما التصوير البيانى والخيالى ، فإنما يعنى — مهما كانت صور التجريدية — الانفصال ويبتعد عن الامتزاج والذوبان الذى يعتبر بعض مقومات العذرية وحقيقة رسالة الشاعر العذرى .

وتتواصل عنده أحاسيس الصد والمعاناة والهجران والغدر ، والبوح بالحب الدفين ، والدمع الهتون لتتشكل من كل هذا حالات الوجد والحرمان والصد التى تنتاب — دائماً العذريين — لأن تلك الحالات تردنا ، وتعيد دمجنا بالمجموعة الإنسانية فكل إنسان يصنع من جميع الناس موطن حبه ومعرج عواطفه لا لكى يؤنس نفسه بهم ، ولكن ليعيد صياغة الإنسانية دوماً من جديد ، ولا يقدر على هذا غير لغة الوجد التى ظفر بها المحبون ودلوا البشرية عليها واعتقد أن ما يستطيعه الشاعر بعامة والعذرى بخاصة هو أن يمنحنا ضوءاً باهراً نستكشف به أعماق نفوسنا وأن يجعلنا أكثر شفافية ، بعضنا تجاه بعض ، وذلك بمقدار ما يمكننا إياه الشعر من كثافة عاطفية تعبر عنها كلمات مشتقة من الكيان الإنسانى الشفاف ، إننا بمثل هذه اللغة نستطيع أن نتكاشف ونتواصل خلال هذا الكون الذى هو كل فى أساسه ، وقد مزقناه نحن عندما لم نستطع القدرة على التواصل ، وهكذا يستمر شاعرنا فى تعبيد هذا الطريق الموصل الى الكثافة الإنسانية الغنية بالحب ، والصدق على الرغم من المكابدة والمجاهدة :

قفى قبل الوداع وخبرينى ... أبعد مرير صبرى تهجرينى ؟
وبعد مودتى زمناً طويلا ... وتعذيبى لأجلك تغدرينى
لماذا يا لسان عصيت قلبى ... وبحت بذلك السر الدفين ؟
وكيف جريت يا دمعى هتونا ... على خدى تنبىء باليقين ؟
تيناً لا أخون العهد عمرى ... ولا أنسى يمينك فى يمينى

فهذا المزيج من الوصل والصد ، واللذة والألم ، والخيانة والوفاء ، هو ينبوع ترتوى منه التجربة الإنسانية بمقدار رحلتها ما بين بشريتها وإنسانيتها ، وماديتها وروحانيتها ، وقد استطاع الشاعر بطبيعته الأساوبية ، وتنويع الاستفهام أن يثير أمام التجربة الإنسانية ثراءاً معنوياً ، ويجسد مواقف تتضمن تساؤلات تعطى طعم المعاناة والإحساس بقيمة الإنسان ، وهو يصارع قوى كثيرة تحقيقاً لمثاله وطموحاته ..

وليس الطريق المعبد بالمجاهدة ، واحتمال الألم هو الذى يعنيه شاعرنا .. وإنما يرمى من وراء هذا كله انتزاع لحظات الصدق والتألق ، والتفاؤل ، وحب الحياة من بين ديمومة زمنية تغلف حياة الإنسان بالغربة ، والتمزق ، والطموح المادى الذى يذرى بأسمى ما يجاهد الإنسان فى سبيله ويتحصل الإهانة من أجل تحقيقه ، ولهذا فشاعرنا الذى تعذب بالغربة والهجر ، يعود ليقول بصدق حسه : « هناك على الدرب أكثر من فجر سيشرق ، وتتعانق فى ضوئه الساطع مواكب البشر وفية لغدها أمينة على قيمها » :

يمينا لا أخون العهد عمرى ولا أنسى يمينك فى يمينى

واستعذاب الألم ، واستشعار الذل ، والمهانة ، وبث الاستعطاف ، واستعظام لحظات الرضى الخاطفة ، واستطالة رحلة الشوق والفقدان ، واستدامة زمن الضياع والهجر ، والحرمان .. كل هذا من مقومات المنهج النفسى للعذريين ، وشاعرنا يحس بالالهفة والشوق إلى لحظة الرضا التى تغمره بالسعادة والهناء ، قبل لحظة الفناء والرحيل :

حاولت إخفاء الهوى فعصانى قلبى ودمعى ناظرى ولسانى
ماكنت أعهد قبل حبك أن أرى نفسى رهينة ذلـة وهـوان
يا من تخذت من الجمال صوارما رحماك يا ذات الجمال الحانى

ونحن فى النهاية أسرى معتقداتنا ومثلنا وهذا هو سر وجودنا إذ مهما حاول الإنسان تحرير نفسه من قيود وجوده فلا يمكن أن يفلت من إطار خضوعه ، وشاعرنا وهو يؤكد خضوعه ، واستسلامه يود أن يعترف بضعف الإنسان أمام قدره ومصيره ، وانهيار كل مقاومة للإنسان فى مواجهة حتمية ما يلاقيه على وجه الأرض حتى أضحى شهيداً تتعاطف معه الكائنات ، وتذوب حناناً وتعاطفاً معه .. حتى الجمادات " :

أأبيت ليـــلى فى ضنى وسهاد ... ويبيت طرفك فى نعاس هادى
أأنوح فى جوف الظلام مردداً ... إسماً يرجعـه وجيب فؤادى
وأجود بالقلب المنيـــع مسلما ... وأرى فؤادك فى هدوء هادى
وأموت ظمآنا وعندك حاجتى ... ويضيع صفو أنت فيه عمادى

ويستمر هكذا مستسلماً لعذاباته ، مشفقاً على حبه يبث شكواه ويرسل أنينه ليرجع إليه الصدى ، وقد تجسد حناناً وعطفاً وتعاطفاً تتأكد من خلاله وحدة الوجود الشيء الذى يجعلنا نفترض مع « كولردج » : « وجود رابطة بين الطبيعة بمعناها الأسمى ، وروح الإنسان »(١) .

ونعتقد أن اتصال شاعرنا « فؤاد » بالطبيعة ليس اتصالا فنياً يستمد منها الوحى ، ويستلهمها الخيال الشعرى ، وإنما علاقة روحية عميقة تجعل الشاعر مندمجاً فى الوجود الكلى متحداً مع الطبيعة إتحاداً يفوق نظرية «سبينوزا» فى وحدة الوجود ، والتى تقول : « إن الله ليس له وجود مستقل عن الكون وإنما هو مجموع الوعى الموزع فى أرجاء الكون »(٢) .
فالاتحاد الذى يحس به شاعرنا هو التجاوب والتبادل ، وتنمية العلاقات ،

---

(١) أ. أ. ريتشاردز : مبادىء النقد الأدبى ، ترجمة د. مصطفى بدوى ، ص ٣٢٩ ، طبعة المؤسسة المصرية ، القاهرة .

(٢) د. لويس عوض : بروميثيوس طليقاً ، ص ٤٢ .

وتحقيق إرادة الله فى أن يخضع الكون لإله واحد ، ويسهدف غاية واحدة وتسوده مشاعر واحدة ، ولغة واحدة ، ومن هنا تكون روعة التجاوب والتعاطف بين الشاعر والطير ، بل بينه وبين الجمادات :

قد ضاع قلبى فى هواك وروعت ... كبدى وناحت لى طيور الوادى
وغدت تعزينى وتذرف دمعها ... لما لبست على الفؤاد حدادى
إن الجماد يلين مما حل بى ... يا ليت شعرى هل يلين «جمادى»(١)

وحين يظن أن هاجرته قد زرت أوراقه ، وصوحت أزهاره وأضاعت قلبه يلوذ بفلسفته ويعكف على ذاته يلعق أحزانه ويقتات يأسه لكنه يؤكد خلود حبه واستمراريته ، لأنه ينبوع من ينابيع الروح ، وهو حب نادر لأنه عفيف ، ويستهدف السمو والتسامى ، فهو إن كان قد يئس من اللقاء العاجل ، فإنه يؤمل فى اللقاء الآجل حيث سيتم التعارف ، والتلاقى بين الإنسانية ، وتفنى من على وجه الأرض كل معالم الشرور لتبقى الروح عامرة بالخير ، خالدة تمنح الوجود الإنسانى السعادة والصفاء :

وما ماتت الروح التى مسها الهوى ... وإن هوانا فى المحبين نيندر

فهو لن يمل الحديث عن حبه المتسامى ، وهو حديث يقبس كلماته من شعلة أحاسيسه المتوهجة ، ولا ييأس من غزارة الدموع ، وكثرة الشكوى وهو لا يرى بعينيه وإنما بجوه النفسى :

هات اسقنى نكد الأيام مختلفا ... واجعل رحيق الأسى من أدمعى الجدد

يصور حاله ، وحال المحبين الذين أضناهم طول النحيب ، وهو موزع النفس شأن المرهفين ، لا يستقر على حال ، وهل حياة الشاعر العذى

---

(١) من قصيدة « قد ضاع قلبى » ، ص ٦٢ .

إلا قلق كلها .. ؟ وهو غريب الدار والأهل والأيام .. وهل المحب سوى قلب وضيء مفعم بالنبل والكبرياء ؟ أو شهاب يلمع فى سرعة ويختفى بأسرع مما يلمع ؟ .. ويخرج من اغترابه هذا ليواصل تحيبه وأنينه مشاركاً حماماً « يبكى » أليفه فتهز الشاعر تلك الأحزان ويرسل من قلبه شعراً يمتزج «بالهديل» و« الأنين » ليتكون من المزيج غناء وجودى شجى يوحى بقوة الإبداع لدى الطبيعة ، وقدرتها على أن تجعل غناءها مزيجاً من أصوات الطير ولغات البشر لتمنحنا صورة من لغة الكون المثالى ، كما أن الشاعر بهذا يسعى نحو هدفه المنشود وهو سمو الحب ، والتسامى بعواطفه وجعلها وكأنه يقوم برحلة فى أعماق الكون والوجود ..

إن كان دينك يا حمام كدينى ... أو كنت تشكو من فراق خدين
أو كنت تذكر فى الدجنة غائبا ... فامزج أنينك فى الدجى بأنينى
وتعال نكس الليل من نسج الجوى ... ونبث شكوانا لكل حزين
ونحيك من ذاك الظلام على الندى ... ثوبى حنان أو ثياب حنين
إنا اتفقنا فى الشجون لحكمة ... ولهمنا أبكيك أو تبكينى
وإذا تناجينا فذاك لعلة ... هى أننى أرضيك أو ترضينى
نح يا حمام أنح فشجوك فى الدجى ... أصلى فؤادى واستدر شئونى

وهكذا يسترسل فى شجوه ، وأغاريده مستلهماً تجربة الوفاء الغريزى للطير

بح بالجوى فى الليل غير محاذر ... منى فلست أخون غير خئون
يهنيك أنك لم تصادف شامتا ... أو عاذلا فى الهم غير أمين(١)

والشاعر وهو يشارك الطير غناءه الحزين يغبطه على محبوبه الذى لا يشاركه فيه « رقيب » أو « عذول » أو « حسود » بينما هو يعيش تجربة الوصل بين

---

(١) من قصيدة « نح يا حمام » ، ص ٩٥ .

حب مقطوع ، ومحبوب ممنوع ، وبين محبوب زاهد فيما يبذل له من شوق ، وما يتحمله المحب من آلام .

« فالرقيب » و« العذول » و« الحبيب المنافس » شخصيات يتخيلها « العذريون » . تضيف لمعاناة المحبين أحزاناً أخرى ، وقلما نجد شاعراً عاشقاً إلا وتحدث عن « لائمته » و« عاذلته » و« الرقباء » الذين يعوقون تواصل الحب بين المحبين وجسور اللقاء بين العشاق ، وهذه من تقاليد الحب تؤكد التواصل الوجودى ، وتوحده ، فالشيء الواحد تلتقى عنده الرغبات المتعارضة ومن نحبه يشغل بغيرنا ، ومن نعرض عنه يقبل علينا ، وفى النهاية تتأكد وحدة الكائنات ، وتتكامل الأشياء ، وهذه من مفارقات الوجود .

نتسمع إلى شاعرنا وهو يصور لنا تجربته مع الرقيب العانى :

أواه من عين الرقيب العـــانى ... منها حياتى أشتكى وأعـــانى
أنى ذهبت إلى الحبيب بناظـــر ... أجد الرقيب بعينـــه يلقـــانى
فأغض طرفى رغم ما أنا حامل ... من لوعة وأعيـــده لمكانى
قلبى وقلبك يا رقيب معـــذب ... مما دهاك من الهوى ودهانى(١)

فى هذه الأبيات يؤكد الشاعر على العاطفة الإنسانية ، ولا يعرى شعره منها وإن كان يقودها إلى نهاية المطاف مما يجعلها تحقق وجودها حيث تظل ينابيع الحب تفيض فى فراغ ، وهكذا تظل العاطفة متوهجة ، وينابيعها فائضة ومع ذلك فالشاعر قد أبقى على قوة التعلق بها ، وأفصح على أن العواطف البشرية تتوجه إلى من يقوى أوارها ، ويبعث فى أعماقها النار الخابية ، وهذا مذهب « العذريين » وهم فى التعلق العاطفى هذا مختلفون عن الرومانسيين فى ظاهرة « يمكن تسميتها باطراح الإنسانية ، أو تعرية التعبير الشعرى بقدر

---

(١) من قصيدة الرقيب ، ص ٦٩ .

الإمكان من النزعات ، والعواطف البشرية »(١) أى المستقرة الثابتة ، ولذلك فشاعرنا يختلف كأحد أبناء العذرية والأفلاطونية فى أن حبه يتسم بالثبات والاستقرار فى العواطف وفى حالة هيام دائم وفناء لا ينقطع فى المحبوب والحب فيه دائماً يمنح محبوبه الوجود ويجدد فيه الحياة ، وذلك بسبب وجده وأنينه المتواصل وارتعاشة القلب الذى توثرق فيه الحياة بقدر ما يعتصره الشاعر أشواقاً وحنيناً وصبوة ، وهجراناً :

أئن ولكن هل أنينى واصـــل إليها ؟ وهل عما أعـــانى يعبر ؟
أحن ولكن هل حنينى فى الدجى يسير إليهـــا خاسة ويذكر ؟

إنها لوعة المحب ، وقسوة الشوق المهدور ، والأنين المردود يصدر عن شاعر عاطفى فى حنين ووقدة حس تسفر عن مناجاة أحد طرفيها قلب منزوف ، والطرف الآخر قلب مرجو .. وهذه رحلة الشاعر العذرى ، ونمو ارتعاشات روحه عبر رحلة الوجد ، والصد والشوق والهجر تلك التى عانيناها مع الشاعر لكنها — أيضاً — رحلة النقاء والصدق والتسامى بالإنسان وعواطفه ، وبالرغم مما يعانيه فإنه مبق على الوصل ، والقرب مع ما يسببان له من صد وحرمان ، حتى أضحى بسبب قربه المبلول فى الآلام وفراقه المنطوى على الوجد محباً معذباً حائراً بين اللقاء المرجو والبعد المحروم ، غريباً حيران قلقاً تستبد به غربة النفس والقلب ، ومع كل هذا يستسلم للمحبوب فى وله ، وشوق ، ورجاء :

أصبحت حيران لا قربى يعللنى ولا فراقى على وجدى بمحتمل
ألقيت فى اليم عرضى غير راحمة وكنت أخشى على عرضى من البلل
وهاجنى منك أن أرمى بلا سبب بخادع ماكر يغويك بالحيـــل
فاستغفر الله من ذنبى وما غرست يداك فى مهجتى من أروع العلل

(١) د. عبد الغفار مكاوى : ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ .

ما الذى يدل عليه التعبير : « من أروع العلل ؟ .. وما الذى يدل عليه فى الأعماق البعيدة ؟ .. وإلى أى مدى يكشف عن الاستعداد النفسى لتقبل الحب والتضحية فى سبيله .. ؟ ..

أسئلة تدور تحاول الكشف عن مغزى هذا التعبير العفوى والنفسى ، أو الذى قد قصد إليه الشاعر ، وسواء هذا أم ذاك ، فإنها جملة صادرة عن العقل والوجدان معاً وتعبر عن حالة روحية تملكت الشاعر عقب البوح بالحرمان والشك والخوف الذى فجره فى مجرى أحاسيسه ومشاعره ، فهو رغماً عنه وعن حالات ضعفه وشكه وتردده ، يعيش الوجد والحب معاً ، وتنتابه مشاعر الذل اللذيذ ، والشقاء الممتع ، واليأس الآمل ، والوله المؤنس .. بل إن سر سعادته ومتعته كامن فى تيار الوجد المتدفق بدءاً بالحرمان وانتهاءاً بالصدوا لهجران لأن الحب عنده نوع من المعاناة ، والمكابدة واحتمال المكاره فى سبيل من نحب ، وتوطين النفس ، والقلب على الوفاء لهم ، فنحن نبحث فيهم عن حقيقة وجودنا ، ونقترب بهم من موطن الحمال والخيال لنبدأ رحلتنا الروحية إلى الله بعد أن أصبحنا مؤهلين للقائه .

وأخيراً .. « فإننى لا أقصد إلى تأكيد فكرة عشق الألم . وتمنى دوامه من شاعر عذرى عاش حياته فنياً ووجدانياً ، وهو يعتصر قلبه شعراً يعترف فيه بصدق وأمانة ، بما يكابده ، ويتحمله فى سبيل هواه والتسامى بأشواقه وأحزانه ولكن ما أردت هو أن شاعرنا بآلامه ، وأحزانه ، ووجده .. قد حول قتام الحياة إلى إشراق وازدهار ، واستعلى على ماديتها ، واستبدل بجهامها وقسوة الإنسان بها ومادية الطموح البشرى فى حياة مجتمعه وبيئته جمال الروح ، وصفاء النفس ، ونقاء القلب ، وطهارة الوجدان ، وعفة اللسان ، فاصطنع بألمه وأحزانه صورة إنسانية تشرق بالحب ، وتنمو بالتضحية وتورق بالإيثار .. لكن أين الرجولة من هذا الدمع ، والسهد ، والأنين .. ؟ هل هانت الرجولة إلى هذا الحد ؟ .. وهل مات الرجل فى الشاعر لتصبح

آهاته وأشواقه وصده وهجرانه من أنفس ما يحرص عليه الشاعر يستبدلها برجولته المعتدة ؟ .. ولم الذل والهوان واللينونة .. والخضوع ، والاستسلام ؟ والمرأة لا يرضيها هذا مهما لاقى الرجل من هذه الأحاسيس الناعمة المسرفة فى النعومة أو على حد تعبير الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى تحليلها الشخصية رامى الفنية والعاشقة .

« فالمرأة تنشد الرجولة ،وتعشق القوة المستبدة ، وتحب الشخصية السامقة القوية على تلك المتخاذلة المستضعفة ، فالقوة معبودة كالبطولة ، وبخاصة لدى المرأة القوية الشخصية » ..

إن نظرة فاحصة ، ومستأنية للشعر ، وشاعره ستعطينا رؤية صادقة لشعر تضمن أنفس ما تجود به نفس شاعره ، والشاعر حمل بين جنبيه قلباً طاهراً ووجداناً عذباً بريئاً ، ومن هنا كانت رسالة الشعر عنده ليست فيما يحسه القارىء من أول وهلة وهو أنه يقرأ شعراً يستدر عطف المرأة على الرجل لكنه أمام شعر يذكى جذوة الجمال الروحى التى كادت تطفئها مشاغل الحياة المادية ، بحيث تشعر فى لحظة خاطفة بسمو روحى ، وتسام عاطفى ، وصعود نقى نحو النور والجمال والجلال .

فالشاعر يحاول بشعره هذا أن يهتدى إلى كهوف النفس البشرية ومغاورها على حد تعبير الدكتور « يوسف مراد »(١) منادياً بصوته السحرى قلب المرأة وأحلام الأنثى يحدوهما ، ويندمج فيهما بحيث تغدو المرأة ، وهى رمز الحياة والوجود مصدراً يفيض حيوية ورقة وعذوبة ، وتفيض على من حولها سمواً وحباً ، ورغبة فى الحياة ، وتمتعاً بمباهجها إذ ليست العلاقة بين الشاعر العذرى والأنثى هى علاقة بين الرجل والمرأة وإنما بين الشعاع وبين النفس الضالة التى تبحث عن الضياء ، وبين الصوت القادم من الأعماق والسارى فى تيه الزمن وليالى الأيام ، فالشاعر يأخذ بيد المرأة ، ويسمو بالكائن البشرى فيها .

---

(١) د. يوسف مراد : علم النفس فى الفن والحياة ، ص ٣٣ .

والشعراء العذريون بعامة لا يرتبطون بامرأة بعينها، وإنما هم فى الغالب الأعم عشاق للمثل ، مشتاقون لنبع الحنان والجمال ، وأكبر ظنى أن شاعرنا كان يتمثل هذا الإحساس وهو يؤدى رسالة الشعر فى مجتمعه من خلال المرأة ، لأنها الحقيقة البشرية التى انتشرت منها الحياة المقدسة الأولى كما يراها الله سبحانه وتعالى ، فصورها صورة للجمال الخالد ، ورمزاً لفيضه الروحى المتمثل فى العطاء ، والميلاد ، وكيانها يجمع الجمال الحق والحب الطاهر ، والإيمان الصادق ، والقناعة الراضية ، والتضحية المسرفة ، والوفاء النادر ، والأمل المتناهى ورسالة الشاعر هى أن يفجر هذه الينابيع فى شرايين الحياة لينتصر الوجود البشرى على نقائصه ، ومساوئه .. ولهذا السبب كان غناؤه وشدوه :

لى فى المنازل غصن، أدمعى ثمره ... سهرت فيه وفى غير الهوى سهره
موزع القلب لم أحكم عواطفه ... وحدى لذلك أهواه وأحتقره
نضى صباح وصالى ثم ألبسنى ... ليلا من الهجر لا أدرى متى سحره
فهل لقلبى دواء يستعين به ؟ ... أم لا دواء لصب داؤه قدره(١)

فالحب حتمية ، وضرورة من ضرورات الوجود البشرى ، وهو قدر الناس جميعاً ، وفى سبيله فإنهم يبلون بأقصى مراحل الابتلاء ، ويتحملون كل المعاناة وذلك من أجل أن يتأهل الإنسان للمرحلة الأسمى .

---

(١) من قصيدة « فى الحب » ص ٩٨ .

(ح) مرحلة الرحيل والفقدان :

يتسم الشعر العذرى فى بعض مراحله بالرحيل وسيطرة عاطفة الفقدان عليه والرغبة القوية فى المفارقة ، والعزوف عن الحياة والرغبة فى الفناء والموت والخلاص ، ثم الإقبال على مظاهر التلاشى الكونى كغروب الشمس ، وذبول الزهر ، وجفاف النهر ، وسقوط أوراق الشجر .. وشاعرنا قد عش مع شعره هذه التجربة ، وذلك بعد أن مر بتجربة الصد والهجر ، والرفض من قبل المحبوب .. فكانت مرحلته الشعرية تلك امتداداً شعرياً مليئاً بالصراع المستمر بين الموت والحياة حتى أصبح من معانى الحب الموت ، أو الإشراف عليه ، والشىء الذى أحب أن أوضحه بعد قراءاتى فى شعر العذريين ، وفيهم شاعرنا هو أن فكرة الحرمان تستبد بهم . «وقليل منهم من أبدع وصف الحب والمرأة ، وقال شعراً أتى فيه بالفن الراقى ، ثم وصل إلى المعشوق فأروى رغباته حتى سلم له الحب والفن معاً .. وأرى أن هذا القليل الذى سلم له الحب والفن ليس من العذرية اللهم إلا فى شعره ، لأن العذرية عندى يتطابق فيها الفن والحب .. ولذلك كان الشاعر العذرى الحق هو صاحب قصة مليئة بالحرمان والصد والهجران ، وشعره صدى لمعاناته ومكابداته وتاريخ الشعر العاطفى حافل بهذا القصص سواء فى هذا شعراء العرب أو فرسان أوروبا الوسيطة أو متصوفة الهند والصين» .

وقد ظل شاعرنا يغنى للحب ، ويتغنى بالصد ، ويتشوف للوجد ، ثم مات دون أن يروى رغباته مكتفياً بهذا التوهج الروحى الذى امتلأ به شعره ودل على حياته بين مجتمعه . والموت عنده ليس عملية نهائية بل حياتية فى صورة أخرى حيث يعانق الموت الحياة ، لأننا كلما اقتربنا من الموت توهجت بداخلنا الحياة ولا شىء يضمن لنا بقاء الحياة قوية فى مواجهة الموت سوى الفن والشعر والموسيقى ، ولا يبقى على جذوة الفن قوية متوهجة إلا الحب ، ولا يجعل الحب نامياً معطاءاً إلا « الوجد » و« الحرمان » .

ومن هنا كان حرص بعض المجتمعات على الحجاب إيماناً منها بأن هذا من شأنه أن يقوى الرغبة لدى الرجل . والعفة لدى الأنثى بما تتحقق معه — أيضاً — تقاليد اجتماعية سامية ، وعادات راقية تعود إلى ما ينشأ وسط هذه المجتمعات من عفة ، وعذرية وتهذيب مستمر ، وتأنق فى التعامل الإنسانى وتقديس للبطولة والتضحية .. أى أن المجتمع يتحقق له الرقى الاجتماعى ، وترقى معه أفكار شبابه وشاباته ، فيتولد عن تلك الأفكار نظام اجتماعى مهذب فى لغته وسلوكه وأفكاره وعاداته ، كما أن الاهتمام بالفن والأدب قد يعلى من قدرهما ، ويؤكد على الاهتمام بهما الوجد والصد والحرمان ، وعدم السماح للتواصل بين المحب والمحبوب إبقاءاً على التوهج الفنى والاشراق الأدبى .

والشاعر العذرى يصطنع تلك الحوائل ليبقى على شعلة الفن فى وجدانه متقدة لا تنطفىء أبداً .. بل إن المحبوبة ترفض الوصل ، وتمنح الوجد والصد إبقاءاً على الوهج الفنى فى شاعرها ، واستمراراً للعطاء الشعرى وتخليداً لها ؛ فالرحيل والفقدان مظهران لموقف يختاره الشاعر العذرى تجاه الحياة ، وإذا كان الجنس هو الحياة التى تقاوم الموت ، فإن الحياة بدون حب هو بمثابة أن تحمل الحياة جنين فنائها ، والحياة التى يسعى إليها الشعراء هى حياة الروح ولهذا كان الحب العذرى بديلا للجنس ، يقاوم الموت ويعلى من شأن الحياة .. والموت عندهم استبدال لقاء الله وهو نهاية الإطار الوجودى للحياة الإنسانية — بلقاء المحبوب باعتبار الثانى تواصل مرحلى وتفوق مرحلة على أخرى حتى يتحقق التسامى على الأرض .. أما لقاء الله فهو رغبة روحية تشف عن حزن لما آل إليه الوجود الإنسانى من انقطاع ، وعن خلاص يحرر الروح الإنسانى من الاستعباد المادى دون هدف أو غاية تتحقق على الأرض ، فالموت فى حقيقته لدى الشاعر العذرى هو تفوق على الذات واستخلاص للروح من القيود الأرضية واستشراف لآفاق رحبة تهوم فيها الروح ؛ وترتاد ينابيع الأصالة والبكارة والصفاء ، ويصبح الموت مرحلة فنية من مراحل الشاعر العذرى يستطيع بإمكانات تلك المرحلة — المتخيلة — أن يبدع فى ميدان عذريته أحلى الرؤى ، وأعمق الأحاسيس .

وشاعرنا بعد أن مر بتجربة الهجر والصد والحرمان ، وتحمل فى سبيل صد المحبوب وهجره معاناة الصبر والمثابرة والمكابدة والكتمان إعلاءاً لعاطفة حبه لكنه فى النهاية يتقبل الرحيل ويستعد لاختيار الموت :

أكذا جزاء الصبر والكتمان ... أنى أعدد منك بالحرمان
أو بعدما أرسلت روحى فى الدجى ... ورأيت قلبى فى أسى وهوان
وعرفت أنى فى هواك معذب ... لا ترأفين بعاشق ولهان
إنى سألتك فى حياتى حاجة ... لتكون لى عوناً على أحزانى
فمنعتها عنى وزدت تدللا ... قومى إذاً انهيئى أكفانى

فبعد هذا الولاء والوفاء للحب والإخلاص للمحب ثم الحرمان المتواصل من جانب الحبيب لا يجد الشاعر مبرراً للاستمرار فى حياة كلها صد وحرمان هو لذلك يقبل على الموت مختاراً لكن بعد أن يفيض على محبوبه من نقاء روحه ويضفى على حبه قداسة ، وطهراً ، وعفافاً ، وخلوداً .. ويحاول استمالة قلب محبوبه ، ويعطفه على حاله ، ويبث فيه الحنان والرغبة فى الوصل الروحى الذى لا يتحقق إلا نادراً وسط زحمة الحياة بمادياتها ونوازعها متوسلا فى كل هذا بوسائل إقناعية تجود بها روح نمت فى ظلال الإيمان والقوانين الإلهية التى تقدم للبشر الحل والأمن والأمان :

أختاه ساعات الحياة قصيرة ... معدودة بدقائق وثوان
تفنى النفوس وكل حى هالك ... إلا هواك فذاك ليس بفان
نوحى على ولا تضنى بالبكا ... فأنا قتيل الهجر والسلوان
أختاه لا تنسى إذا ذكر الهوى ... أن تذكرينى بالهوى الروحانى
وإذا ضممت اليك غيرى فارحمى ... وتذكرى روحى وكيف تعانى

« تفنى النفوس » : تعبير بالمضارع لاستمرار الفناء المادى ، وخلود النقاء

الروحى ، فالموت فناء مادى ، وخلود روحى ، ومن هنا فان الحياة تعانق الموت تخلصاً من الشوائب المادية واستخلاصاً للنقاء الروحى والحب العذرى مجال خصب للتواجد الروحى وبه تتأكد العلاقة القائمة على التذكر والاسترجاع بين عالم الماديات والروحانيات :

أختاه لا تنسى إذا ذكر الهوى أن تذكرينى بالهوى الروحانى

وشاعرنا يبقى دفقة الإحساس فى الروح تمشياً منه وإيماناً بأن الروح تتعذب وتتألم متجاوبة مع العالم الدنيوى :

وإذا ضممت إليك غيرى فارحمى وتذكرى روحى وكيف تعانى

والشاعر يعترف ضمناً بأن الزمن الدنيوى ليس ملكاً للشعراء العذريين بل إن لحظاته المتألقة الخاطفة التى تتيقظ فيها المباهج الروحية هى التى يمتلكونها أما العالم الآخر فكله ملك لهم لأنه عالم الروح وموطن الجمال الخالد ، وما اللحظات الخاطفة فى الدنيا سوى صورة وظل لذلك العالم الروحى ، حيث المتعة الروحية الكاملة :

أختاه ساعات الحياة قصيرة معدودة بدقائق وثوان

ومن هنا كانت قيمة الشعر العاطفى كامنة فى مقدرته على تناول الحالات النفسية معزولة عن الواقع المادى ليجعلها موصولة بالأجواء الروحانية المتسامية وهو يتناول تلك الحالات لا على أنها ظاهرة فردية ، بل ظاهرة مجردة من خلفيتها ، ومن الموروثات ليحولها إلى مستوى من الحياة الإنسانية الحقيقية بخصائصها النفسية الأصيلة ، ومن ثم ينجح هذا اللون من الشعر العاطفى فى تجاوز الذات الفردية بأطماعها ورغبتها المادية فى الحياة ، إلى ذات إنسانية عامة يتحقق لها نوع من الشفافية والصوفية ترى الآخرة والنهاية برؤية تتراءى فى ضوئها الحياة القادمة وقد تلونت بالبهجة والألفة والمحبة ويجد فيها شعراء العاطفة وطنهم وأحبابهم .

وشاعرنا قد عاش حياة قصيرة لكنها مفعمة بالصبوة واللهفة والشوق والحرمان ، وامتدت إمتداداً لا نهائياً بالفن والإبداع .. ثم بعد تلك المكابدة يقبل على الموت واجداً فيه السلوى والمعين الثر بالمعانى التى تغذى فكرة الحرمان ، وتؤكد على التعذيب وتجعل الشاعر مغموراً فى الأحزان ، وموضع عطف ، وملتقى مشاعر الأسى ، والإشفاق . وهو من أجل ذلك يشكل صورة مأساوية لحبه يهتم فيها بإبراز الألوان الكابية الشاحبة وينمى بداخلها عواطف الحزن الإنسانى كلها مستخدماً أساليب الفطرة ، والبداوة والطريفية الساذجة ، وذلك عندما يشيعون أحباءهم وأعزاءهم فإنهم يصطنعون « بكائيات » و« مواليا » تمتزج بالأعماق الإنسانية الأصيلة فتهز العواطف وتدفع الدموع فى العيون والشجى والأسى إلى القلوب :

إنى أموت ولست أرغب فى الدنا ... ما دام قلبك صدنى وجفانى
فإذا مررت على القبور فسلمى ... فعسى سلامك فى البلى يلقانى
وقفى على قبرى وقولى ها هنا ... دفنت بغدرى فى التراب أمانى
وضعى الزهور عليه إن دفينه ... فى العيش كان يميل للريحان
وترفقى فهناك فى ثوب البلى ... زين الشباب وزينة الشبان
وإذا مشيت فلا تدكى فى الثرى ... فالقلب تحت التراب فى خفقان(١)

صورة حزينة تجسد الإحساس بالرحيل والفقدان ولا يشعر بمدى ما تثيره فى النفس من أسى ، وفى القلب من هم إلا من كابدها وعاش فى بيئة الأحزان الفطرية الساذجة ، ولا هذا الذى غلف قلبه ومشاعره بغلاف « الحضارة والثقافة الحديثة » غير مكترث بمثل تلك العواطف الساذجة ، ومع ذلك لا يجنب نفسه الإحساس بها فى لحظة صفائه الإنسانى واستشعاره أحاسيس البساطة والصدق والوجد الإنسانى الأصيل .

---

(١) من قصيدة « إنى أموت » ص ٤٥ .

والشاعر فى كل كلماته وتعبيراته بسيط وصادق وأمين على نقل عواطفه وإحساسه بالموت يتعاظم حتى يملأ عليه كيانه ، وذلك بمجرد قراءتنا لقراره : « إنى أموت .. » فقد حكم على نفسه بالموت تبعاً لإحساسه الداخلى الذى

أخذ يكبر إلى أن تحقق بعد هذه القصيدة بأكثر من عام ، ثم بعد ذلك أخذ فى رثاء حبه الذى هو فى الحقيقة ذاته ، وحقيقته ملوحاً بغدر الحبيب فى مقابل وفاء وولاء المحب مستعيناً بصورة للشاعر (أبو فراس الحمدانى) فى قوله : « زين الشباب وزينة الشبان » تنبهاً منه إلى أن العواطف حينما تكون صادقة صدقاً إنسانياً أصيلا فإنها تلتقى — أحياناً — فى تعبير واحد ، وذلك دون قصد أو لمجرد النقل ، وهذا يؤكد أن الشعراء العذريين والمحبين والعشاق يمتحون من معين عاطفى متقارب ، ويعبرون بلغة شبه متجانسة مدللين بهذا على وحدة المشاعر والعواطف الإنسانية الأصيلة ووحدة الوسائل التعبيرية ، وتقارب الوعاء اللغوى .

ثم يأخذ الشاعر فى استعطاف محبوبه وذلك باستعراض حالتيهما المتناقضتين ترفاً واستراحاً وسعادة ، فبينما هى تأوى إلى مضجع وثير وتتناول أطيب الطعام ، وحياتها صافية ، وادعة فإنه مدفون فى أكفان من تراب القبر ، محروم محزون ، وكل ماكان يتمناه هو بعض الحنان وشىء من الرضا :

وإذا أويت إلى المضاجع فاذكرى ... فى القبر كيف يكون للإنسان
وإذا أكلت تريثى وتذكرى ... ما كنت أوثره من الألوان
وإذا أدرت كؤوس صفو فاعلمى ... أنى قضيت العمر فى أحزان
كم كان يشبعنى ويشفى غلة ... منى بقية رحمة وحنان

ربما كان هجر الحبيبة ومعايشة صدها نوعاً من العذاب يقارب « القبر » وما توحى به تلك الكلمة لكن الشىء الذى لا يشك فيه هو أن الشاعر

قد ضاقت به الحياة بعد أن هجرته و صدته حبيبته حتى كاد يتمثل القبر و ظلاله تمثلا نابعاً من عمق إحساسه و صادق شعوره .

والحب الصادق لا ينتظر أن يغمره المحبوب بفيض الحب والحنان ، لكن يكفيه دائماً بقايا تبعث الأمل ،وتحيي القلب ، وهكذا يعبر الشاعر بهذه القناعة الراضية عن مشاعر العذريين :

كم كان يشبعنى ويشفى غلة منى بقيـــة رحمة وحنـــــان

فشبع المحبين وارتواؤهم يتم بأقل عطاء ، وأبسط تعبير ، وأية مشاعر صادقة لأنهم روحانيون تكفيهم وتبل صدى قلوبهم لفتة عاطفة أو وصال خاطف ، وليسوا ماديين يتعاملون مع الكم ، بل مثاليون يعيشون على الكيف وفى هذا إشباع وسعادة أية سعادة ، وبدلا من الحنان ، وبقايا العطف والرحمة كانت قسوتها وترددها وشكها فى حبه ، والشك فى المحب من أقسى مشاعر القسوة التى يحس بها المحبون :

لكن قسوت فكان حبك قاتلى وأصبتنى بأسنة الهجـــران
وسألـــتنى والله يعـــلم أننى وقت السؤال مشتت الوجدان
هل ذاك حق ؟ ماتقول ؟ وهل قاسيت فى حبى ؟ وهل تهوانى ؟
فصعقت من هول السؤال ومابه عند المعذب من بعيد معـــانى
ووقفت لا أبدى جواباً حائرا وأخذت أحبس مدمعى ولسانى

السؤال المثير للشك ، والدال على عفوية المحبوب ولوعة المحب يتضمن خصوصية من خصوصيات شاعرنا المحب وتجربة ذاتية معيشة ، ودائم نؤكد باستمرار على وجود تلك « الخصوصيات » و « التجاوب الذاتية » حتى يمكن تعميمها ، وذلك بعد امتحانها إمتحاناً يؤكد صدقها ، وقوتها ، إذ غالباً ما يشترك « العذريون » فى تجارب عامة تتصل بوجدهم ، وشوقهم لأن

مجتمعهم انفصالى .. فاللقاء معدوم ، والتلاقى خاطف ، ومثير فقط للتساؤلات ومن هنا تقل التجربة الذاتية عندهم وتظل فقط محلقة فى سماوات خيالهم ، ويندر أن نلتقى فى شعرهم بمواقف تجمعهم بمحبوباتهم ، وإنما هو الشوق واللهفة والصبوة .. وهذه هى سمات الحب العذرى فهو أبعد ما يكون من الغايات الدنيا بين الرجل والمرأة حسب المحب الهيام والتأمل فى وجده ، واستعذابه العذاب فى بعاده والإقبال بشغف على الموت إن ضاق به الوجود ، أو شغله عن التأمل فى المحبوب ، ولعل أروع ما يعانيه المحبون هو الكتمان والوجد ، وأسعد لحظات وجودهم هى لحظة البوح بما يكتمونه ، وذلك بأقوى أدلتهم العاطفية ، وهى الدموع التى تفصح عن مكابداتهم .

وبرغم ما فى العذرية من مكابدة وحرمان فإن التسامح والعفو والغفران من أبرز سمات مجتمعهم :

لكننى أخفقت من هول الأسى ... والدمع من بعد الخضوع عصانى
فتركته حـــراً يسيل مخـــبراً ... فالدمع أفصح منطقى وبيـــانى
(تسعين شهرا) قد حبست مسيله ... فدعيه يطفئ حامى النـــيران
واستغفرى الله العظيم لعـــله ... من فضله يأتيـــك بالغفـــران
وتمسكى بالعهد فهو مقـــدس ... أوصى به الرحمن فى القرآن(١)

قيلت هذه القصيدة فى ديسمبر ١٩٣٤ أى قبل وفاته بسنتين وبضعة أشهر والتى استرسل فيها مودعاً إياها كل ما جال بخاطره من معانى « الرحيل » و« الفقدان » وما تحمله فى سبيل المحبوب من وجد ، وصبر ، وكتمان .. وقد حدد مرحلة وجده ومكابدته بـ « تسعين شهراً » وذلك فى الإشارة الواردة بصدر البيت الثالث ، أى « سبع سنوات ونصف » أى أن هذه المرحلة

---

(١) من قصيدة « إنى أموت » ص ٤٣ – ٤٨ .

بدأت خلال عام ١٩٢٦ قبيل تخرجه فى مدرسة الحقوق الملكية فى يونية ١٩٢٧ وهى فعلا مرحلة امتزجت حياته بالمعاناة ، والمجاهدة امتزاجاً قوياً ، وكان شعره هذا نتاج تلك المعاناة وقد صدر وكله أسى وحرمان ، ولم يعرف أحد ممن حوله عن هذه التى ملكت على شاعرنا قلبه ووجدانه ، وتضاربت الأقاويل حول حبه ، وقصة ذلك الحب ، فمن قائل : إنه وصل وهوى عاشه الشاعر مع أطياف كانت تؤنس وحدته وهو جالس أمام قصره « متأملا النهر الجارى تحت قدميه » ، وآخر يؤكد هواه لإبنة عمه وقد كان هذا العم أثيراً لديه ، وثالث يكشف عن حب غامر ، عاشه الشاعر تجاه فتاة ريفية كانت مثالا نادراً للجمال والنضج ، وقد منع الوضع الاجتماعى لكل منهما من التواصل والتلاقى ، وحالت حوائل طبقية بينهما ، وسواء هذا أم ذاك ، فإن الشاعر قد عاش تجربة حب من نوع خاص وكان شعره تعبيراً فى مجموعه عن الوله والوجد الذى عاناه وليس فى هذا الشعر ما يدل على حقائق مادية ومراحل زمنية لكنه هيام ، وشوق ، ومكابدة .. ثم حرمان ورحيل وفقدان ، أى أنه يعكس عاطفة إنسانية نقية ، وقلباً مفعماً بالنقاء ، والطهر ، والصفاء كما يحكى قصة اجتمع لها الوجد الإنسانى ، والتسامى نحو الكمال ، والوهج الفنى ، والامتزاج الروحى بالكون ، ونماذجه المشعة بالكمال والجمال والجلال

وشاعرنا لم يكن يطمع فى وصله بمحبوبه إلا بالرضا مقتنعاً بمن يحققه هذ الرضا من سعادة وهناء ، وهو يخاف الموت قبل أن يتحقق له هذا المعنى ، فلم يكن إذن غرامه وهيامه إلا لوناً من المعاناة والمكابدة تحقيقاً التسامى العاطفى والنقاء الروحى الذى يرمى إليه العذريون :

أأموت قبل تمتعى بلقـــاك	يا من رضاى موكل برضاك
يا من بليت بحبها رحماك	أتراك مشفقة عـــلى تراك
رفقاً بمن صار من أسراك	ماأضعف الأسرى وماأقواك

فالاستفهام الوارد فى أول البيت يعبر عن شهقة آسية ، ولهفة حانية ، واستنكار للحقيقة الكونية ، وهى الموت دون اللقاء والتمتع برضا المحبوب ، فالموت نهاية حتمية ولكن بعد حياة من نوع خاص ، وإلا فإن الحياة والموت يفقدان المعنى الإلهى لحقيقتهما ، ولا يجعل الحياة لها معنى إلا الوصال الإنسانى كما لا يجعل للموت معنى إلا الثواب والمجازاة ، والحب فى أجمل مشاعره وأحاسيسه .. استسلام وخضوع ، بل وقوع فى أسر لا فكاك منه بحيث يصبح الأسير ملكاً لآسره وخاضعاً لقيوده ورهن رضاه وهو صد وهجر ووجد .. فأيهما أهنأ للعذرى ؟ البعد على الشوق والحرمان أم القرب مع الوصل ومتع اللقاء .. ؟ الواضح من كلام الشاعر أنه يستمرىء البعد المفعم بالأشواق لأنه يجعل من الموت معادلا موضوعياً وطرفاً متجاوزاً حدود الإمكان ليظل هكذا معذباً فى بعده مؤملا فى قربه ، ووصله فالطرفان متوازنان ومنسجمان ، والبعد بأشواقه ولهفاته ، والقرب بوصله ومتعه ، الأول يسهد ويستنفده ، ثم لا ينال والثانى يستعذبه حتى ليفنيه ، ومن هنا كان فى الجفا والهجر نعمة للأحباب يتمناها ويأسى لفواتها « العذريون » وما الموت والتعالى به إلا رغبة فى استطالة زمن الوجد ، والصد ، والوصول بتجربة الحب إلى مسار جديد يلهب الشاعر . ويشعل نار الأشواق فى أعماقه والموت قد يفصله « العذرى » تمرداً منه على الزمان اللانهائى الذى يفصل بينه وبين محبوبته وأيضاً استجابة لعاطفة دينية عدلت من مفهوم الموت بمعنى الفناء الكامل النهائى ،وأصبح رجوعاً إلى الله غافلا فى هذا التعديل عن الموت بمعنى الزمن ومن ثم أصبح نهاية غير مفزعة .. ومع أن الناس فى مجموعهم لم تتهيأ نفوسهم لتقبل أى تفسير سواء كان لقاء الله ، أم زمناً متجدداً فإن « العذريين » و« الصوفيين » والمتدينين بعامة قد وجدوا فى حل لغز الموت بمعنى قمة التطور والصفاء والاستعداد للقاء الله تفسيراً أراحهم وبدد اليأس من نفوسهم ، وقد ارتاح إليه العذريون أكثر لأنه جعل لحبهم وعشقهم وانتمائى بعاطفتهم منفذاً وبعداً .. وتجاوزاً لمن قد يكون فى التعلق به تعذيب وألم وصد وهجر إلى من فى حبه والتعلق به ، والرغبة فى لقائه سعادة ، وتعارف ، وتقريب

للمثول وإلغاء للطبيعة الزمنية ، فالرحلة إليه تعنى العودة إلى الأبدية ، وتحقيق الأمل فى ثوابه ونعيمه ، وجناته بعد أن ظلوا فى غربتهم يعذبهم الشوق والحرمان والصد والهجر فى دنيا الناس .. وهذا لا يعنى أن هناك من لا يرى فى الرجوع إلى الله رحلة أبدية وراءها حسابه ، وجنته ، وناره ، وهؤلاء هم أصحاب القلب العامر بمشاغل الدنيا ، ومباهجها وهم غير من شغلوا بمعاناتها.

ثانياً : النزوع الإنسانى :

وهو الصوت الثانى الذى نسمع صداه فى باقى شعر الشاعر ، وليس هناك خلاف بين صوتين ينبعان من ذات الشاعر ، ويتمددان ليشملا روح الكون كله وما الحب إلا نزوع إنسانى لأنه خروج من الذات ، وقيود الأنا ، وتعاطف مع الوجود الإنسانى فى أعم صوره ، وأوسع مشاعره وهى الرحمة والعدل ، والحق ، والخير ، وهو رفض للتقوقع داخل النفس ، وممارسة النشوة الداخلية دون إضفائها على من حوله ، فالحب فى حقيقة انتمائه نزوع إنسانى ، وبالحب تسود الموجودات نزعة غريزية فى إتجاه التكامل والتسامى وتحقيق الوجود الأمثل .

وشاعرنا محب قد انفتح على من حوله ، وخرج عن ذاته ليحققها فى وجود أشمل وأوسع ، وهو فى أعماقه يشعر بولاء نحو إنسانيته ، وقد امتلك مقدرة التعبير عن هذا الولاء الذى هو أبعد عن أن يكون مصلحة مادية ، أو طمعاً دنيوياً ، أو تعالياً طبقياً .. إنما هو ولاء يفرض على صاحبه تجميل الوجود ، خصوصاً إذا كان شاعراً عذرياً وذا عقل ذكى وشعور رقيق مرهف وحس دقيق حاد وقدرة على تأمل ما حوله والاستفادة من تأمله والخروج بموقف شمولى ، ونظرة متأنية مدركة ..

أقول .. يفرض عليه أن يجمل الوجود الإنسانى ، ودلك بإشاعة المحبة بين أفراده وأن يعلن سخطه على واقع يسمح بأن يموت الأطفال جوعاً وحرماناً

دون أن يكون بإمكانه أن يتعاطف معهم و مع أمهات فقدن العائل فافتقدن مصدر الحياة لهن و لأولادهن .. و يعذبه أكثر و يوقعه فى تناقض نفسى و إنسانى ، إحساسه بواقعه المترف السعيد فيعلن تمرده الأبيض السوى و ثورته الإنسانية الهادئة مستنكراً واقعه الموسر رافضاً لذة الحياة و نعيمها و يسرها و نفعها ، لأنها على حساب شقوة الآخرين و آلامهم و عسرهم ، و بهذا كان الشاعر المحب الإنسان منسجماً مع روحه و فكره و قلبه و قد أثمر هذا الانسجام فى مكونات الشاعرية والعذرية والإنسانية وفى شخصية « فؤاد شهاب الدين » مجموعة من القيم الإنسانية تمثل لنا صورة « فؤاد الإنسان » و مقوماته الإنسانية بعد أن تمثلناه محباً طاهراً نقياً شفافاً .. فضلا عما بين إنسانية الشخصية و عذريتها من توازن و انسجام أساسه و حدة العاطفة المغذية لكل من البعدين : الإنسانى والعذرى ، و لذلك نجد شاعرنا و هو يتعرض لمشكلات إنسانية تعوق التواصل الروحى بين أفراد مجتمعه يحاول جهده أن يبقى على العمق الإنسانى طاهراً نقياً صافياً من شوائب الحقد الاجتماعى و تقديم مشكلات مجتمعه فى بعد إنسانى والحفاظ على ما فى الإنسان من إنسانية .

و تعميق هذا الإحساس لدى الأفراد من أجل أن يعيد دمج الإنسانية من جديد دون صدع ظالم أو قسوة اجتماعية ضاغطة أو حرمان بشرى ممقوت جاعلا للدين وروحانية حله الاقتصادى لفعالية ، الأكثر تأثيراً بما يتمشى و مكونات شخصيته و نزوعها الروحى و لإنسانى .. و هذا الذى نجده لدى شاعرنا إنما يمثل منهجه الروحى فى معالجة أمور دنياه وهو منهج خرج به عن التقاليد الاقتصادية بقيودها المادية و أغلالها الحاقدة إلى رحابه الروح بعالمها الحر الفسيح ، تندفع فيه العواطف والمشاعر اندفاعاً بحيث تتوهج جذوة العاطفة الرافضة للظلم والقسوة والحرمان و تشع الروح برغبة التغيير والمعاونة والمؤانسة ، و يتفجر فى ضمير لمجتمع ينابيع الخير والحق والعدل و بحيث يحيا أفراده حياة حافلة بالود والترخى والمودة .. و لذلك نجد الشاعر

يتبع وحي قلبه وهو يلفت نظرنا إلى أخطائنا الاجتماعية ويتحمل عنا المسئولية والظلم الواقع على أبنائنا فيقول :

أيلذ لى يسرى وغيرى معسر ... وسواى يفترش التراب ويصبر
سبحـــانك اللهم إنك مـــالك ... للملك تعطى من تشاء وتقـدر
وتعـــز أقواما وتبسط رزقهم ... وتذل قوماً آخـــرين وتفقـر
كم تحت ستر الليل من متوجع ... يشكو الهوان وناعم لا يعذر

فأى نفسية أعلى وأى وجدان أرهف من هذا الذى يتألم للفقير وهو فى بحبوحة من العيش ، ويرثى للمسكين وهو فى نعيم مقيم مَنْ مِنْ هؤلاء الذين يرتعون فى المال عرض لنا دخياة نفسه فى هذه الصورة الحمياة المؤثرة ؟ أو أخرج لنا مكنون لواعجه نحو البائسين فى مثل هذا الشعور النبيل .. ؟ مع أن المنطقة يملؤها شعراء مفلقون وخطباء مصاقع وكتاب مقاويل ، لكنهم شغلوا عقولهم وقلوبهم ووجدانهم بما يرضى السادة ويقف بهم على الأبواب مهنئين ومادحين ومعزين وجعلوا أدبهم محصوراً فى دائرة الساطة ، والسلطان الاجتماعى والسياسى ، فكان أدباً وشعراً أرستقراطياً متعالياً على أحزان الناس وآلامهم لا تمس فيه حقائق الواقع الاجتماعى ، ولا تهاجم النظم الفاسدة ، ولا يتجاوزون بخيالهم الشعرى الصور البديعية الشكلية إلى صور نابضة بالحيوية والجمال الدفين ، وإنما كانت أشعارهم صورة للزخرفة والتأنق اللفظى الذى ساد تلك المرحلة ، فأضحى هؤلاء الشعراء والكتاب فى مجتمعنا الريفى الماضى يعيشون فى جملتهم عالة على نفاق السادة وعلى مظاهر الأرستقراطية الإقطاعية العامرة بالفن المعمارى ، والتقليد الموروث ، والعادات الثابتة المستقرة . من هنا كان صوت شاعرنا منساباً فى الأعماق ، وعبر الآفاق ، وبين حنايا القلوب ولفائفها النابضة ، يهز ، ويبشر ، ويدعو وبين جنبيه نفس شفافة ، وروح طاهرة ، ترفل فى حلل النعيم وهناءة يحوطها من أسباب الترف ،

ومغريات اللهو — ما ينسى الكثير من أبناء الأغنياء أمثاله لقاء رهم وحسابه إياهم عما فرطوا فيما يفرضه الثراء على الأثرياء من إطعام محروم مسكين ، أو إعانة منكوب ، أو مواساة مكلوم حزين ، أقول .. إن النفس هذه تئن فى هذه الحال الناعمة ، وتتألم كما يئن الفقير ويتألم المسكين ، وترثى لهم بذلك الرثاء الذى تشعر معه بوحدة المشاعر ، والعواطف حتى ليصبح الألم واحداً ، والأنين ممتزجاً .

ويستمر فى عرض صور اجتماعية حافلة بالبؤس ، والشقاء ، والمعاناة ، والحرمان :

كم بائس نضبت موارد رزقه ... يتلمس القوت اليسير فينـدر
وابن الرخاء ، ممتع فى مـاله ... وثراه نشوانا يتيـه ويفخـر
كم والد يبكى لفقد عـزيزه ... والرأس بين يديه وهو يفكر
وأمامه أم يمـزق صـدرها ... وجد عليـه وقلبهـا يتفطـر
ورضيعها يبكى ويطلب ثديها ... والثدى يجمد والمحاجر تمطر (١)

فى الأبيات وقفة تأمل وجدانى ، ومسح إنسانى لصور ، ومرايا تنعكس عليها حال المجتمع وقتئذ وموقف إنسانى أمام سلبية اجتماعية متهاونة فى حق الإنسان ، والشاعر بدءاً باستنكاره الذى توج به الأبيات يمنحنا أساليب مشحونة بصنوف من التوتر النفسى حيناً : « وسواى يفترش التراب ويصبر » ومن القيم الإنسانية حيناً آخر :

« وتحملت ألم الفراق ونـاره ... طمعاً بأن صغيرها قد يكبر »

ومن الصور الشعرية ذات الأبعاد النفسية والعميقة :

جعلت رداء صغيرها من زندها ... وفراشه صدراً يئن ويزفـر

---

(١) من قصيدة « تحت ستر الظلام » ، ص ٣٥ .

والشاعر بتلك الأبعاد لوضعية مجتمعه كان حاضر مرحلته ، وشاهد عصره كما أن سهولة عبارته ، وواقعية لفظه ، وصوره ، وروعة المطابقة بين شعره وواقعه جعلته متجاوزاً مرحلة الانفعال إلى التكثيف والتلوين العاقل لمشكلات المجتمع حتى أصبحت الأبيات نفثة وجدانية واحدة ، وذات مذاق إنسانى طيب وخصب وبناء ، والشعر صادر بحق عن شعوره ، وهو نسيج فى متفرد وسط ديوان شعر الرسميات والمناسبات ، الذى ساد مجتمعه ، وبيئته .

ومن هنا كان شاعرنا من أصلح شعراء منطقته ، لأن يكون نسيجاً مصرياً نابضاً بالحياة المصرية والريف المصرى معبراً عن واقع الحياة الاجتماعية ، ويسل بشعره على ما يخبىء لتطور لهذا الشعر المصرى من تقدم ، واردهار كانت بداياته على أيدى شعراء أمثال شاعرنا الذى يعتبر بحق — كما قلت — معبراً لرحلة الشعر الذى تظللنا قصائده الآن بنفثها الوجدانية الواحدة وطابعها الرمزى ومساحاتها المكثفة باللاشعور :

والأبيات لا تثير نضالا طبقياً ، ولا تفسر الواقع السيء تفسيرا اقتصادياً واجتماعياً ، بل تؤكد رغم ما يعانيه أفراد المجتمع من جوع وحرمان على وداعة هؤلاء الناس وإيمانهم بالحكمة الإلهية وراء كل ما يعانونه وأنهم فقط يطالبون بتحقيق عدل الله فيما بين خلقه هذا فضلا عن قناعتهم ورضاهم ، ورغد الحياة المعنوية التى يحيونها .. فالأم أمام رضيعها الباكى الجائع تعود إلى نفسها هادئة مطمئنة ، بعد أن راح فى سبات عميق موحدة ربها مكبرة الله لأنها تعتقد فى عدله وعطفه وحنانه :

فرأته فى نـــوم عميـــق غارقا فهضت توحد ربهـــا وتكـــبر

ويستمر الشاعر فى استعراض صور تلك الحياة البائسة ملوحاً بمسئولية المجتمع ، محاولا بهذا الاستعراض تأليف وحدة اجتماعية بارزة تستلفت بواقعها ذوى الضمائر ، والحساسية الفنية والمسئولية الاجتماعية والسياسية .

كم من يتيم بائس متألم ... مل الحياة وعينه تتفجر
ويقول يا رباه إنك صادق ... والقول عند الله لا يتغير
فأنا يتيم بائس ومعذب ... فلأى ذنب فى حياتى أقهر ؟
وإذا سألت الناس قرشا واحداً ... ألفيتنى عنه أرد وأنهر
كم بعد فقد أبى شربت مرارة ... ومصائبى فى كل يوم تكثر
أصبحت غصنا فى رياضك ذاويا ... وسواى من مزن هتون يزهر

الشاعر فى تعبيره بـ « كم » الخبرية والإسم بعدها مجرور يثير مشكلة اليتامى وكثرتهم ، وهم بدون رعاية وإشراف وتوجيه ، وفى الوقت نفسه يؤكد على أن هؤلاء سيصبحون فيما بعد مصدر خطر اجتماعى ، وذلك نتيجة لإحساسهم بالضياع ، والمهانة وتسرب الملل من الحياة إلى نفوسهم ، فالملل ، واليأس من الأمور التى لو تسربت إلى قلب الإنسان بعامة والطفل بخاصة فإنها تفتك به وتقضى على كل آماله وتهدم كيانه وتبدد معالم الحيوية فى شخصه ، وبالتالى ونتيجة لكل هذا يقع المجتمع كله فريسة للأحقاد والأمراض الاجتماعية ، والشاعر حينما جعل اليتيم يتحدث ويصور حاله ، إنما يقصد بذلك إعلان المجتمع بجريمته وإقامة الادعاء ضد الوجود الاجتماعى فى الوقت نفسه يحمل طبقته مسئولية عدم تحركها فى سبيل الرعاية والتربية والترشيد الواجب عليها تجاه وجودها ثم يعلن سخطه على الواقع ورفضه لظواهره البائسة وتحمله باسم طبقته المترفة اقتلاع كل جذور التخلف والفقر ، والبؤس ، والوصول بالعلاقات الإنسانية إلى التوازن والتحاب ، والألفة الاجتماعية .

يوضح هذ الموقف الساخط قائلا :

ويحى إذا ما الليل جن ظلامه ... إن لم أساعد بائساً وأصبر
ولحاله أرثى وأرسل مدمعى ... والقلب يعلى والدموع تسطر

والشاعر رومنسى حالم ، عذرى العواطف ، إنسانى النزعة يتضح هذا

من مواجهته لشقاء الآخرين ، وطريقته فى التعاطف معهم ، فدموعه تعبر عن فيض مشاعره ، ورقة عواطفه ، ولكننا نرى هذه الدموع رمزاً للحل المطروح لكل مشكلاتنا ، إنه الحل الإنسانى الذى يتفق وطبيعة الشعب المصرى ستجابة للعوامل الدينية والتاريخية والإنسانية التى توجه قواه الاجتماعية توجيها يتمشى والأصالة الإنسانية المركوزة فيه ، فالحل كامن فى التكافل والتعاون الإنسانيين .. والشاعر بهذا المنهج الإنسانى فى تتبع المشكلات يؤدى رسالة تربوية أخلاقية ، ويعد منهجه هذا تمثيلا لما يجب أن يكون عليه أدب التغيير الاجتماعى أو أدب الإرهاص الثورى حيث يراد من الأديب أن يكون واعياً وعياً إنسانياً بالخطر الماثل ، قادراً على تصوير الخوف ووصف الأزمة النفسية والاجتماعية التى يمر بها عالمه ، وصفاً فنياً ينم عن عواطف إنسانية ، ويشف عن رؤية روحية ، وبساطة فى الأداء اللغوى تقوى فيه جانب الصدق والأصالة والاستجابة ، على أن القيمة الحقيقية لإنسانيته تلك لا تتجلى بشكل حاسم إلا بعد زمن يسمح لكل القيم والأخلاقيات والمتوارثات أن تمتزج ، وتتصهر فى بوتقة التجريب والتحديث الاجتماعيين لتتشكل قاعدة تربوية أخلاقية مؤسسة على روح الأمة ، ومثلها الدينية الرفيعة ، لأن أى حل بدون سند دينى محكوم عليه بالفشل ، والدين هو الفطرة ، والفطرة تعنى البساطة واحتضان الحل الإنسانى ، وشاعرنا فى اتجاهه هذا إنما يرشدنا إلى الجانب الإنسانى دائماً فى حياتنا ، فحلاوة الإيمان تذيب وباستمرار مرارة الحنظل ، والشاعر عندما يتناول مأساة مَنْ حوله ، لا ينصب من نفسه واعظاً كما قد يبدو من تعبيراته أو حينما يطالعنا فى قصيدته « دع الحرير » وفيها يصطنع منهجاً استرجاعياً موضحاً فى ظله فناء كل شىء ، وإن كل ما نختزنه فى ذاكرتنا من تاريخ وشخصيات مؤثرة ، وحوادث كبار ، قد انتهت دون أن يظفر أصحابها إلا بقدر ما قدموه من عمل صالح أصبح لهم ذكرى ومجداً ، ليخلص من هذا إلى دعوته الاجتماعية للأخذ بيد الضعفاء والعطف على المنكوبين ، والتأكيد على جانب العاطفة الروحية ، وضرب الأمثلة الاسترجاعية لإشاعة الخوف من الله وعدم الاطمئنان إلى الزمن الذى يعطى مرة ليأخذ مرات ..

فكل شيء قبض الريح والقاعدة الأساسية والحقيقية الخالدة هى أن كل شيء إلى زوال لمستمع إليه وهو يقول :

دع الحرير وجدد عهد من ذهبوا ... فليس ينفعنا مال ولا ذهب
وساعد الناس تسعد فى ظلالهم ... واحذر من الدهر إن الدهر منقلب
واعلم بأنك مهما عشت من زمن ... فإن سيف المنايا منك مقترب
فلا تكن شامتاً فيمن أصابهم ... ضيم الزمان ولا من الدنا نكبوا
أين الملوك الألى كانت جيوشهم ... يدك «رضوى» لها هولا ويضطرب
وأين نيرون لما قام من عجب ... يقول « روما » فدانى وهى تلتهب
وأين « خوفو » و« مينا » أين منقرع ... لم يغن مالهم عنهم وما كسبوا
وأين « سعد » ؟ فقد كانت لطلعته ... تهتز مصر وفى أقواله اللهب
أين « الخليفة » ؟ قد ضاعت خلافته ... أين البدور وأين الشمس والشهب
الكل فى فلك جار ، فمطلعه ... تلك الحياة وعنها سوف يغترب
لم يبق منهم سوى ذكر يخلدهم ... وفى القلوب لهم من بعدهم نصب

وبعد أن عدد أمثلة من الماضى مؤكداً الفناء ، مذكرا بالموت ملوحاً بالزوال أخذ فى مجموعة من العظات والنصائح مستهدفاً الإصلاح الاجتماعى والمودة الإنسانية :

فمن أساء فإن الناس تمقته ... فحسن الذكر فى الدنيا بما تهب
إن لم تكن واهباً مالا فهب عملا ... فإن ما يعمل الإنسان محتسب
واعطف على كل منكوب وذى ألم ... ولا تلم من قد مسه العطب
فالله قد أعطاك فى الإحسان أمثلة ... فى حبة أنبتت حباً ، ألا تثب
فراقب الله فيمن ضاع كدهم ... وهل بغير حظوظ ينفع النصب

فى الأبيات خطابية مسرفة لكنها صادقة التعبير عن إحساس شاعرنا ،

وفيها تصوير لحقيقة اجتماعية سائدة فى البيئة تلك هى الكثرة الكادحة والقلة المترفة والذى يمعن فى قراءة البيت الأخير يدرك ما وراء التعبير الشعرى من خلفية إنسانية ماثلة فى مكابدة الكثرة بدون حظ يحقق لهم الثراء وحظوظ القلة فى الترف والثراء بدون جهد ولا مشقة ، وهنا يلفت الشاعر نظرنا إلى تلك الحقائق التى تقف خلف النظام الاجتماعى والاقتصادى لكنه يسلم بالخضوع له لأنه عند النظر البعيد تنظيم إلهى ، والذى يجب عمله هو الإصلاح والأخذ بيد الفقراء والمساكين والتخفيف عن كاهلهم ، فمثل هذا اللون من الإصلاح المبنى على قواعد روحية يقرى الروابط ويوثق العلاقات الإنسانية وينمى داخل الإطار الاجتماعى عواطف التكافل والتعاون والتساند والاحتياج فنجاح أى مجتمع متوقف على الإحساس السائد بحاجة كل واحد فيه إلى الآخر وعطف الغنى على الفقير ومساعدة القوى للضعيف ووقوف الناس جميعاً معه فى وقت الشدة ، ومشاركتهم له فى أفراحه وأحزانه .. أما المجتمع الذى يستغنى أفراده بعضهم عن بعض ، ويتساوى فيه الجميع وتنعدم حاجة أفراده إلى بعضهم فى العمل ، والعمالة — مثل هذا المجتمع تسوده المادية ، وتفنى فى زحمة مادياته كل المعانى الوضيئة التى تحقق السعادة الحقيقية ، وتموت المجتمعات روحاً وحضارة وتقدماً إن غابت عنها هذه المعانى أو تناستها ، أو داست عليها عبر زحفها المادى . وفى البيت تعترف الطبقة الاجتماعية الممتازة على لسان واحد من أبنائها بجحود الأرستقراطية الريفية التى تعيش على كد الفقراء المطحونين ، فسعادتها على حساب شقائهم ، وترفها على حساب كدحها وكدها .. أعود إلى القصيدة كوحدة لأنفى عنها سمة الوعظية لانتفاء الروح التقليدية عنها .. فالشاعر ليس مرشداً تقليدياً وإنما يتحرك بروح دينى وهذه الروح ليست متولدة لديه بحكم معايشته ، بل روحه الدينية روح إنسانية شفافة ، تولدت لديه بحكم طبيعته ومكونات شخصيته وتدينه ولذلك نجد فى شعره محاولة لتفسير الدين تفسيراً إنسانياً فى عذرياته واجتماعياته وهو بهذا الاتجاه الإنسانى فى التعامل مع قضاياه الاجتماعية وبالأسلوب الإطارى الذى لمسناه خلال قصيدته يترجم عن طبع الإنسان وفطرته خالصاً من تقليد

الصناعة المشوهة ولم يفتعل أساوبه ذاك ، بل تهيأت له نفسه أولا بحكم نشأته وملابسات الحياة العامة والخاصة والمنزع الديني والحفاظ على المعاني المغروسة في أعماق الوجود العائلي والأسرى ، تلك التي توجه أبناءه عبر تضاريس الحياة وترسم مسالكها وتوجه تيارها ، وكذلك في رغبته وإرادته النازعة إلى العدل وإلى الخير وإلى الحق وإلى الجمال يصبو إليه ويعشقه ويسعى إليه ويوطنه في النفس الإنسانية ويكشف عنه ويهذبه ويحن إليه متوافقاً مع الجمال (جمال الطبع) وفي المجتمع يبحث عنه ويسميه ويقيم إصلاحه الاجتماعي على أساس من جمال النفس وجمال الفعل ، لهذا كان شاعرنا وثيق الصلة بالحقائق النفسية لمجتمعه . والطبيعة عنده كائن له إحساسه وحقائقه وعندما يعبر عن تجربة إنسانية فإنه لا يفرق بين الحقائق النفسية للمجتمع الإنساني والحقائق الكونية لعالم الطبيعة ، فهو يعبر في تجربته مع الطبيعة عما في نفسه ونفس البشر الذين يعايشونه ، وفي تجربته مع العواطف والمواقف الإنسانية يعبر عما في الطبيعة من حقائق وأبعاد ، وكلا الموقفين .. موقفه من الطبيعة وموقفه من الإنسان ينبع عنده من رغبته في التآلف والتناغم بينه وبين الوجود ، إنسانياً أو كونياً ، وينبوع الحب عنده هو الذى يفيض بكل تلك المشاعر لأن الحب في الأعماق الجوانية لدى الشاعر لا يمثل الجانب الفردى وحده ، ولكنه يمتزج بحب أكبر هو الحب نفسه لكائن في الروح الموطن الحقيقي للوئام الإنساني والكوني حيث يكون لكل شاعر فنان وطن مثالي غالباً ما يكون بعيداً من موطنه الأصلي ترتاح إليه موهبته الفنية إذ تجد فيه جواً مواتياً تطير إليه مسرعة منذ تحس أنها حرة ، وفيه تتفتح ، وتحمل أجمل زهورها (١) .

وشاعرنا قد اتخذ من الطبيعة والإنسانية ، وطناً لأشواقه وينابيع تستقى منها أحلامه وآماله وارتعاشات قلبه وخفقات روحه ورغبة في مجتمع إنساني يسوده الوئام والانسجام وقد تخيل هذا المجتمع في صورة للطبيعة رسمها عندما خرج ذات أصيل ، روحاً هائماً يسرى مع الكون ليرسم لنا صورة الشمس وقت

---

(١) د. محمد غنيمي هلال « الرومانتيكية » ص ٦٤ .

الغروب متمازجة مع الكون ، واعدة بالإشراق متناغمة فى أحضان الوجود ، ثم تحلق فى سماء الطبيعة يسرح فيها النظر واصفاً لنا الغروب ، وقد تجمع الكون حوله فى لحظة استرخاء وسكون إلى أمد ، إنتظاراً لميلاد جديد ، وتدفق حيوى يغمر الأشياء بالدفء والحنو والتقت عنده — أيضاً — الإرادة الإنسانية بأنوار المدينة التى تسبح فى بحيرة فضية اصطنعتها « الكهرباء » وزادها « البدر » تألقاً وسطوعاً ونضارة ، بحيث تشعر بجمال التوازن ، والاندماج فى الوجود وقد تأسس على الطبيعة صنع الله وجميل آياته ، وإرادة الإنسان خليفة الله على الأرض وتلمس حياة خافقة فى كل ما اهتز ، وخطر ودب . وإذا كانت المدينة كثيراً ما يصم ضجيجها أذن الإنسان أن تسمع نداء الطبيعة الخلوب ، وهتافها السارى الطروب ، وتعشى أنوارها الوهاجة عينيه فلا يكاد يرى فجرها الصادق المنبثق من آفاق العالم ، ولا ينعم بتساقطات الندى على أكمام الزهر ولا تهزه الشمس الفنانة وهى تنسج بأنوارها الذهبية الساحرة الفاتنة من الندى وحبات البرد أردية الصباح وأغطية الوجود هناك على الأكواخ ، والعرائش المتضعة حيث تفيض الألوان بأجمل الأصباغ — أقول إن الشاعر أراد بصوره وإتلك أن يوجد علاقة حميمة بين الطبيعة وفالحها ومتذوقها ، وبينها وبين المدينة مؤكداً بهذه الصورة المثالية الحالمة حلمه وأمله فى صورة شبيهة ، وقريبة للمجتمع الإنسانى وقد تغلغلت فيه عناصر الجمال النفسى والطبيعى ، واندمجت فيه كل القوى الظافرة بالخير ، وبالمحبة ، وبالتسامح .. تتداعى عنها حياة حافلة بالرغد ، والود ، والوفاء .. وها هو الشاعر يحدثنا عن أعماقه ودو يصف لنا صورة إنسانية متولدة فى مخيلته متداعية إليه من عرش الغروب :

خرجت يوماً ، وكان الجو معتـــدلا ... والشمس زادت جمالا فوق ما فيها

ولم يكن قط من خـــل يؤانسنى ... غير الكتـــاب وأرواح أناجيهـــا

حتى انتهيت إلى روض وجدت به ... حلو الفواكه عاليهـــا ودانيهـــا

به عليـــــل إذا ما مـــر مبتهجـــا ... على عليـــل شفى فى النفس ناميها

والشمس عندئذ ألقت ملابسها ... وأرسلت شعرها من فوقها تيها
كأنما تعبت من طول رحلتها ... فرامت النوم والدنيا تناديها
توسدت بجنوب الأفق واتخذت ... من السماء سريرا بات يطويها
وأوحشت بعدها الدنيا وما فتئت ... كل الطيور على الأغصان تبكيها
أخذت أمشي وكان الليل يتبعني ... بظلمة كسواد العين تشبهها
بظلمة حفها نور فقد جلست ... كل الكواكب في أعلى كراسيها
أما المدينة فالأنوار تملؤها ... والكهرباء تجلت في نواديها
والبدر قد زادها نوراً بطلعته ... لذاك قد صار وصفي في معانيها(١)

بهذه الأبيات ، وبأبيات سابقة عن « النجم » و « السحاب » و « الغدير » و « البدر » يقترب شاعرنا العذري من عتبات شعراء الرومانسية ، محاولة منه فهم الحياة والوجود ، وأسرار النفس البشرية ، واندماجاً مع ينابيع الصفاء الكوني في إطار صوفي ، ووجد كوجد العذري ، وهو يبث محبوبه هواه وأشواقه ، وهو قريب من نظرية « مترلنك » شاعر البلجيك حينما ترى أن هناك إدراكاً عاما موزعاً في هذه الدنيا كأنه فيض ينفذ في الكائنات بمقدار ما عندها من استعداد « لتوصيل » الإدراك ، وعلى هذا يكون الإنسان على هذه الأرض هو مثال لحياة التي تميزت بأقل ما يعرف من المقاومة لذلك الفيض الذي يسميه الدينيون بالإلهي ، وتكون أعصابنا هي الخيوط التي تهيئ لسريان تلك الكهرباء بالتي هي أدق من الكهرباء ، وتكون أدمغتنا هي الأداة التي ركبت على منوالها لمضاعفة التيا .. وإنها لأسرار ربما كان من الفضول أن نستطلعها ما دمنا لم نرزق بعد تلك الحاسة التي تستجمع أسباب العلم بها(٢).

---

(١) من قصيدة « غروب الشمس » ص ٤٨ .

(٢) عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب ، ص ٣٠٢ .

والنزوع الإنسانى لدى شاعرنا كامن ، ومستجيب لمواقفه، وتجاربه ، فان أحب وصبا ،وكابد ، كان من عمق إنسانى قلما ينزع به إلى رغبة أو ملهاة أو ملء للفراغ ، أو غناء شعرى خال من الصدق والعمق ، بل حبه كله تجميل للعاطفة الإنسانية ، وسمو بها ، واستمرار لنهرها الجارى من قديم وهو إن رسم إطاراً للوجود استهدف المضمون الإنسانى أساساً وحقيقة للوجود كله حتى فى رثائه ، وهو قليل ونادر ، ولم يقل شعراً فيه إلا ان أحبهم فعلا ، وارتبط بهم برباط القلب والروح : « عمه يوسف » ، وخاله : « توفيق شهاب الدين » — فإنه يبل ريشته فى مداده الإنسانى ، ويمتح من النفس العاطفة ، وتظل إنسانيته والتعاطف مع الناس ماثلين فى كل أعماله محباً عاشقاً ، أم مندمجاً مع مجتمعه فى مشكلاته ، أو باكياً راثياً .. وفى رثائه لعمه « يوسف » وقد تجددت فى قلبه مشاعر الذكرى ، والاسترجاع ، أخذ يصور لعمه الراحل صور المجتمع المصرى وقد خيم البؤس ، والفقر فى وقت شدته ، وسنوات عجافه حينما كان يحكم مصر نظام حزب الشعب الذى جاء فى أعقاب أزمة اقتصادية عالمية تطاير شررها إلى مصر ، واستفحل فيها . ولقد تهددت هذه الأزمة مصالح طبقات الشعب المصرى بملاكه وفلاحيه وعماله ، وموظفيه حيث تكدس القطن المصرى ، وهو عماد اقتصادها ، دون مشتر حتى وصل المكدس منه إلى أربعة ملايين قنطار سنة ١٩٣١ ، ولقد تهددت هذه الأزمة الجماهير فعلا ، فانقلبت الجماهير على الحكومة الصدقية يقاومونها فى عنف شديد وقابلتهم الحكومة بالحديد والنار ، فتحولت المعركة إلى « شبه حرب أهلية على حد تعبير صدقى نفسه(١) .

أما شاعرنا فقد قاومها بنزوع إنسانى يتمرد على المظاهر السيئة ويستعجل لها الرحمة من عند الله، ولطفاً مصوراً «الموت» بالنسبة لهذه الحياة نعيماً، وجنات وارفة الظلال ، ناقماً على هؤلاء الذين لا يعملون على تجنيب الناس والفقراء ويلات

---

(١) د. عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر ، ص ٧٣٣ .

ما هم فيه من فقر مدقع ، وخراب مدمر ، ويأس قاتل ، ويخاطب عمه قائلا : ومصوراً ومستنجداً :

قل لي أترضى أن تعود إلى الدنا ... وتودع الجنات والرضوانا؟
فترى الحياة بنظرها ودوانها ... وترى النقائص فى البلاد عيانا؟
وترى الفجور محسما ومعظما ... وترى المصائب حولنا ألوانا ؟
وترى البلاء على البلاد مخيما ... قسما بمن جاورت ما أشقانا ؟
والله قد صب الشقاء على الورى ... لم يخل إنساناً ولا حيوانا .. ؟
حتى الطيور على الغصون كئيبة ... ولهمها لا تشدد الألحانا
وتئن فى وسط الرياض لحزنها ... وتنكس الأزهار والأغصانا
حال من البؤس الأكيد رأيته ... أفنى الشيوخ وحطم الشبانا
وبكى الرضيع لجوعه وتسولت ... أم فلم تبصر لها معوانا
فالفقر قد عم البلاد جميعها ... وكسا الرجال مذلة وهوانا
يهنيك أنك فى السماء مكرم ... يهنيك أنك مفعم إيمانا
فادع المليك يفض علينا خيره ... ويصب فينا البر والإحسانا(١)

إنها حساسية إنسانية صاغها الشاعر رثاءاً لعمه ، ورثاءاً لبلاده وناسه حتى الطبيعة وطيورها ، التى تشنف الآذان بألحانها قد ألمت بها المحنة ، فأطيارها لم تعد تلقط الحب ، وتغدو فى سماء الريف المصرى ، وتروح طليقة ناغمة صادحة تصطنع فى القلب الإنسانى حبا ، ووداً ، وتناغماً ، ودفئاً .. والطبيعة الريفية المصرية كما يراها الشاعر عادلة توزع العدل والخير بين سكان مصر والريف بخاصة والتى تجعل عدلها حقا ، وخيرها تساوياً ،

---

(١) من قصيدة « يرثى فيها عمه ، ص ١٢٠ .

فكأنها ملك عادل لا فرق عنده بين عظيم أو حقير ، وغنى أو فقير ، فالظل مشاع يستظلون به ، والماء متاح ، والهواء براح ، والكلأ مباح ، والشمس مجمرة يجتمع حول دفئها الجميع شتاءاً ، ويستمدون منها القوة والنماء صيفاً ، فهذه الطبيعة هى أيضاً قد أظلتها الأزمة بظلالها ، وكان الأولى فى إحساس الشاعر أن نتعلم منها العدل والحكمة ، والقسطاس المستقيم ، حتى نتجنب ما نحن فيه من سوء توزيع للخيرات ، وما فى قلوبنا من أحقاد وما يشوب علاقاتنا الاجتماعية من تمزق ، وما على أرضنا من احتلال .

وهذا اللون من الرثاء مفقود لدى شعراء المنطقة ، لأنهم يجوبون فنياً فى حلقة مفرغة من التقاليد الصارمة التى ترحات إليهم من عصور الضعف الفنى فلم تستسغ آذانهم سوى الأخرانيات المتكلفة والبكائيات المعددة للفضائل ، والصفات الشمولية ، والرسميات والنبويات الخالية من العاطفة الصادقة .. من هنا نتصور مدى الجهد الفنى ، والوجدانى الذى كان يبذله شاعرنا .. من أجل ترقية حاسة الإبداع الفنى لدى شعراء الإقليم ، والارتفاع بمستوى الشعر ليصبح جيد التوصيل للعواطف ، والأحاسيس الذاتية ، ونافذة يطل منها الفنان على الغد القادم ملوحاً ومشيراً ، وراهصاً بإشراقه .